بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده

المخاطر التى تواجه الشباب المسلم .. وكيف نتوقاها؟

الطبعة الثانية

١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م

رقم الإيداع القانوني: ٢١٠٥ / ٢٠٠٣
الترقيم الدولي: 7 - 305 - 253 - 977

يطلب من:

دار الدعوة

للطبع والنشر والتوزيع

٢ شارع منشا - محرم بك - الإسكندرية

تليفون: ٣٩٠١٩١٤ - فاكس: ٥٩٠١٦٩٥

دار العلوم

المخاطر التى تواجه

الشباب المسلم

وكيف نتوقاها؟

دكتور مصطفى حلمى
كلية دار العلوم - جامعة القاهرة

دار الدعوة
للطبع والنشر والتوزيع

دار العلوم

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله نستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا. من يهده الله فلا مضل له، ومن يضللْ فلا هادى له، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده، لا شريك له، ونشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله، صل اللهم عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا.

أما بعد:

فقد مضت سنوات طويلة منذ إصدار الطبعة الأولى لهذا الكتاب، تغيرت فيها أوضاع كثيرة فى العالم من حولنا وتولدت مخاطر جديدة، وبقيت أخرى مما عالجناها فى الطبعة الأولى ولازالت تلقى بظلالها حتى يومنا هذا.

أما المخاطر الجديدة التى طفت على السطح وفرضت وجودها فهى:

١ - انفراد الولايات المتحدة الأمريكية بمحاولة السيطرة على العالم عسكريًا واقتصاديًا وثقافيًا عقب انهيار الاتحاد السوفيتى.

٢ - أحداث سبتمبر سنة ٢٠٠١هـ فى واشنطن ونيويورك، وما أعقبها من غزو أفغانستان والتهديد لدول أخرى.

٣ - تحلل إسرائيل من معاهدات (السلام) واجتياحها للأراضى الفلسطينية تدميرًا وقتلاً واعتقالاً، وهدمًا للمنازل واقتلاعًا للزرع فوارت بذلك فى التراب مقولة (حرب سنة ٧٣ هى آخر الحروب).

٤ - التهديد بغزو العراق بزعم امتلاكه أسلحة الدمار الشامل.

وتتجمع خيوط هذه المشكلات وتصنع نسيجًا من الإحباط والقلق على مصير الدول العربية والإسلامية حيث تُفرض عليها المعارك العسكرية وهى على غير استعداد للنزال.

[لقد فوجئ العـالم الإسلامى وبوغت بضغط دولى شامـل يحمل اسم الحرب الصريحة التى لم يشأ أصحابها أن يتـستروا تحت أى مصطلح يكون أقل عدوانية، ولقد تنوعت عناصـر الاتهام: فهناك من يسـتحق إعلان الحـرب عليه لأنه يمارس الإرهاب، ثم هناك آخرون يموّلون الإرهاب، وفـريق رابع ثقافتـه تفرز الإرهاب، وفريق خـامس نظامه السـياسى يصدر الإرهابيين، وفـريق سادس مـجتمـعه يولد التطرف، وفريق أخير ربما تكون جريمته أنهم لم يعثروا له على جريمة، وربما يكون مصدر إدانته أنهم لم يجدوا له ما يدينونه به][1].

وعلى أية حال، فإن الأزمـات والمحن تولد طاقات نفسية مضـادة، وهى فرصة لتصحـيح بعض المعلومات والمفاهيم، وإعادة الثـقة بالنفس للمقاومـة وعدم إلقاء السلاح، لأن الهزيمة النفسـية أشد فتكًا من الهزيمة فى ميـادين القتال، وأصبح من واجبنا نـحو شبـابنا - وهو ذخيـرة الأمة وعدّة المسـتقـبل - إضاءة الطريق أمـامه بتحليل وتعليل بعد الواقعات، مع اقتران ذلك بالوعى الصحيح لأن الأمة تخوض إحدى مـعاركها فى سلسلة الحـروب الصليبيـة التى لم تنقطع منذ موقعـة (مؤتة) وزادها ضراوة انضمام اليهود بشكل سافر ووقح استمرارًا للعداء التاريخى منذ عهد النبى ﷺ، ولكن الجـديد أنهم أصبـحوا ذوى شـوكة، وتجـمعـهم دولة طابعـها عسكرى محضّ برجالها وشبابها ونسائها.

وكان الإمام ابن القيم (ت ٧٥١هـ) يتوقع ذلك منذ نحو سبعة قرون، فقال عند وصفه لليهود وانتظارهم لمسيح الضلالة الدّجال (فإنه هو الذى ينتظرونه حقًا، وهم عـسكره وأَتْبَعَ الناس له ويكون لهم فى زمـانه شـوكة ودولة إلـى أن ينزل مسـيح المهدى ابن مريم فيقتل منتظرهم)[2].

وتفجّـر العداء الصليبى والصهـيونى متكاتفًـا بشكل علنى سافر، متـخطيًا كل

---

(١) مقـال بعنوان (تواطؤ الحضارات: نظـام عالمى مؤقت) بقلم أنور الهـوارى - مركز الدراسـات السياسـية والاستراتيجية الأهرام - ٢٨/١٢/٢٠٠٢، ص ٧.

(٢) ص ٢١٥ من كتاب (هداية الحـيارى فى أجوبة اليهود والـنصارى) لابن القيّم، تقديم وتحقـيق د. أحمد حجازى السقا، دار الريان للتراث ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

حواجز الاعتبارات الدبلوماسية التى كان يختفى وراءها من قبل حرصًا على المصالح، فانتهت بذلك مرحلة الصراع من مجال الدراسة النظرية فى دوائر البحوث ومحافل الاستشراق والتبشير إلى مرحلة التنفيذ لحرب شاملة[١].

وأصبح واضحًا وضوح الشمس فى كبد السماء أن إسرائيل هى رأس الحربة، فإن الالتحام بين إسرائيل والعرب بعامة هو أحد أهداف إنشاء الدولة كما خططها هرتزل وما يعلنه اليهود الآن من زعمهم الدفاع عن حضارة أوروبا فى مواجهة «البرابرة» أو الحرب ضد «الإرهاب» هو نفس ما كتبه هرتزل بكتابه (الدولة اليهودية).

فقال (إن اسم فلسطين فى حد ذاته يستجذب شعبنا بقوة ذات فعالية رائعة. فإذا منحنا جلال السلطان فلسطين (يقصد السلطان عبد الحميد رحمه الله الذى رفض ذلك بإصرار) سنأخذ على عاتقنا بالمقابل تنظيم مالية تركيا. ومن هناك نشكل جزءًا من استحكامات أوروبا فى مواجهة آسيا **كموقع أمامى للحضارة فى مواجهة البربرية. وعلينا - كدولة طبيعية - أن نبقى على اتصال بكل أوروبا التى سيكون من واجبها أن تضمن وجودنا**[٢].

وها نحن نشاهد على أرض الواقع ما خططوا له منذ قرن.

إن الحملات العدائية - الإعلامية والعسكرية - الأمريكية والأوروبية بتداعياتها على أرض الواقع فى أفغانستان وفلسطين والعراق وكشمير والشيشان، والسودان،

---

(١) على سبيل المثال، فقد أنفق المستشرق (كاتيانى) جهدًا ومالا كثيرًا فى تاريخ حركة الفتح الإسلامى، وسجّل فى مقدمة (حوليات الإسلام) اعترافًا صريحًا بأنه إنما يريد أن يفهم سر ما وصفه بـ(المصيبة الإسلامية) التى انتزعت من الدين المسيحى ملايين من الأتباع فى شتى أنحاء الأرض، مايزالون حتى اليوم يدينون برسالة محمد - ﷺ - ويؤمنون به نبيًا ورسولاً.
ص ٥١ من كتاب (تراثنا بين ماضٍ وحاضر) الدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) ط دار المعارف بمصر ١٣٨٩هـ - ١٩٧٠م.

(٢) ص ٦٥ من كتاب (الدولة اليهودية)، تيودور هرتزل ترجمة محمد يوسف عدس - مراجعة ودراسة د. عادل حسن غنيم - دار الزهراء ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م، وكتابنا الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة - دار الدعوة، مرجع سابق.

وأندونيسيا - هذه الحملات هى المقدمة للحرب العالمية الثالثة[1] على الإسلام والمسلمين مما يجعلنا جميعًا - وشباب الأمة خاصة - فى أعلى درجات الأهبة والاستعداد للدفاع عن أنفسنا - وتقتضى إحدى وسائل الدفاع، الاحتماء بالدرع الثقافى الحافظ لهويّتنا الإسلامية أمام الحملات الدعائية الكاذبة الساعية لتشويه الإسلام نفسه كدين باسم الإرهاب. وكذلك عنينا فى القسم الثانى من الكتاب بهذه القضية[2]. للصمود أمام (العولمة)[3] وهى أداة الامبراطورية الأمريكية لاجتياح العالم.

هذه التحديات الجديدة والجريئة - كما يصفها الأستاذ صلاح الدين حافظ - تصدمنا بقوتها وترعبنا من مستقبلنا (وذلك لأن قطار العولمة الجديد والمنطلق،

---

(١) يُنظر مقال (هل الحرب العالمية الثالثة على الإسلام؟) بقلم الأستاذ رجب البنا (مجلة أكتوبر ١٥ رجب سنة ١٤٢٣هـ/ ٢٢ سبتمبر سنة ٢٠٠٢م).

(٢) ولا يفوتنا - مع تكثيف الجهد فى المجال الثقافى - أن ننادى بضرورة التكامل الاقتصادى، والعسكرى، والسياسى لصد هذه الحرب التى تود اقتلاع كل شىء فى طريقها وإعادة عجلة التاريخ إلى الوراء تحقيقًا للاستعمار العسكرى السافر، تحت شعارات خادعة كاذبة كفرض الديمقراطية، وحقوق الإنسان، وحرية المرأة.

(٣) تعريف العولمة:

للعولمة تعريفات كثيرة منها: أنها تعنى إزالة الحواجز السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية لتتحرك رؤوس الأموال، والأفكار والسلع والخدمات، أو هى الوجه الحديث للاستعمار وسيطرة الغرب على مقدرات العالم الثالث، أو هى المرادف الموضوعى للأمركة والهيمنة، أو هى الستار الذى تتحرك تحته الشركات العملاقة متعددة الجنسيات، والعابرة للقارات والتى تكتسح التشريعات المحلية لتفرض تشريعاتها الخاصة.

حقائق إبراهيم نافع، سبتمبر سنة ٢٠٠٠م، نقلاً عن ص ١٠ من كتاب «بدائل العولمة - الأمركة ليست قدرًا - للدكتور سعيد اللاوندى، مكتبة نهضة مصر، يناير سنة ٢٠٠٢م.

ويذكر الدكتور اللاوندى أن العولمة الاقتصادية الناشئة عن الليبرالية الجديدة - تترافق بالضرورة مع تقهقر الديمقراطية...

ويستطرد قائلاً (وفرضت النيوليبرالية ثقافة عالمية تحدد أبعادها العولمة والأسواق والاستهلاك للإنتاج والخدمات وتحقيق أولوية التراكم النقدى والقيمة «السوقية للأشياء» وتوسيع عولمة ظواهر الفساد بتسهيل حركة الأموال القذرة القادمة من المخدرات وبيع الأسلحة.. ونجحت التكنولوجيا الحديثة وخصوصًا CNN والإنترنت، وكارت فيزا فى ترويج هذه الثقافة التى همشت (وأبعدت) الآخر وكرست عدم التسامح، والكراهية، والصراعات بين الحضارات التى تسيطر على مستقبل العالم)، ص ٨٥، وص ٨٧ نفس المصدر.

يفرض بالقوة القاهرة مواقيته وشروطه، فى عصر جديد للفتوحات غير التقليدية - بعد انتهاء عصر الاستعمار الكلاسيكى - لأن الأرض المفتوحة وسكانها لم يعد لهم أية قيمة عملية أو مادية، وذلك من خلال صياغة الرأى الأيدولوچى والتحويل الأخلاقى وإقامة هيمنة ثقافية جديدة، تساعد على تركيز أساليب السيطرة غير المباشرة.. وتدعيم سياسة إضعاف الهوية القومية والوطنية، وتعميق التوترات الإثنية والطائفية الدينية)[١].

وليس أمامنا لمواجهة هذه التحديات والمخاطر إلا الثبات والصمود.

ومن يشكّ فى قدرة الأمة على الكفاح والصمود والمقاومة، فليتلق الدرس البليغ الذى تُعلّمنا إياه انتفاضة الأقصى الخارقة للعادة على أرض فلسطين، فى وجه جبروت القوة الغاشمة والأسلحة الحديثة - جواً وأرضًا وبحرًا- إذ إن الروح المعنوية هى المحقّقة للنصر بإذن الله تعالى فى النهاية، لأنها ترجّح كفة الميزان عند المقارنة فى العتاد والسلاح.

ويُعدّ ما يحدث على أرض فلسطين تجربة مصغرة ناجحة إذا اتخذتها الأمة نموذجًا يُحتذى.

يقول الأستاذ أنور الهوارى:

إن إحساس المسلمين بأنهم جميعًا - وبلا استثناء - يقعون تحت حصار شامل وحرب شاملة يشارك فيها كل الآخرين دون استثناء من شأنه أن يعيد تشغيل طاقات التذكر والتفكر فى الوجدان والعقل الإسلامى بصورة تلبى له الرغبة فى مواجهة مخاطر الحاضر، وترسم له كيفية بناء المستقبل، فالطريقة والكيفية والظروف التى تتذكر بها الشعوب ماضيها تحدد لها الطريقة والكيفية التى تبنى بها مستقبلها)[٢].

---

(١) ص ٢٤١ من مقدمته لكتاب (مؤامرة الغرب الكبرى) «تقرير لوجانو»، تعليق سوسان چورچ، ترجمة محمد مستجير مصطفى، تقديم صلاح الدين حافظ، ط سطور ٢٠٠١م بالقاهرة.

(٢) مقال بعنوان (تواطؤ الحضارات: نظام عالمى مؤقت) بقلم أنور الهوارى - مركز الدراسات السياسية والاستراتيچية بالأهرام، ٢٨/ ١٢/ ٢٠٠٢م.

- ويرى ظهور نظام الحضارات المتواطئة بسبب أحداث سبتمبر سنة ٢٠٠١م، هذا النظام يميل =

أما كيف نجتاز هذا النفق المظلم، ونتخطى الواقع الأليم الذى نعيشه، فإن الإجابة باختصار هى:

أولاً: الإخلاص فى العمل لله عز وجل فى أعمالنا كلها (ولينصرن الله من ينصره).

ومقاومة إشعاعات الإحباط والحرب النفسية التى توجهها الآلة الإعلامية الغربية التى تستخدم فيها كل ثمار علوم النفس والاجتماع وتتلاعب بالعقول، واستمرار صمودنا وجهادنا من الإيمان الذى لا يتزعزع بأن الانتصار - بإذن الله تعالى - قادم فى وقته، ومحنتنا المعاصرة ما هى إلا إحدى المحن التى ابتليت بها الأمة، امتحانًا وتمحيصًا لها حتى تستحق أمانة الرسالة الإلهية الأخيرة للبشرية.

ولا ننسى أن أمتنا قد مرّت بتجارب أكثر مرارة، بدءًا بالحروب الصليبية وغزو التتار، وانتهاءً بالاستعمار العسكرى الغربى الذى لم نتخلص من ظلاله بعد فى آفاق الثقافة والاقتصاد، كما عرضناه بالقسم الأول من الكتاب.

ثانيًا: الوحدة فى ميادين الثقافة والسياسة والاقتصاد والتسليح والتنظيم العسكرى.

وأمامنا تجربة أوروبا المعاصرة التى توحدّت بعد سنوات طويلة من الحروب والخصومات، وبالرغم من اختلاف اللغات والمذاهب فهل يصعب على أمة الإسلام العودة إلى وحدتها التى انفرطت منذ نحو سبعين عامًا فقط؟ وعناصر الوحدة المتينة ممثلة فى عقيدتها وشريعتها[1].

= إلى ترويض وتهميش حضارة وحيدة هى الحضارة الإسلامية.. ويذكر أنه ربما - لأول مرة - منذ سقوط الخلافة العثمانية، تضطر الذاكرة التاريخية لدار الإسلام أن تتذكر وحدة الكيان الإسلامى، ليس فقط بالمعنى الروحى والثقافى للوحدة، وإنما بمعناها السياسى والحضارى الشامل الذى يؤكد وحدة الوجود ووحدة المصير.

(١) وكان الدكتور السنهورى - رحمه الله تعالى - قد اقترح الوحدة ولو فى شكل (عصبة أمم).

ويقول روسو (إن الشريعة اليهودية مازالت حيّة! والشريعة الإسلامية التى حكمت نصف العالم مدى عشرة قرون، ما برحت حتى اليوم تعلن عن عظمتها، ومازلنا معجبين لعبقرية منشأتها العظيمة والخالدة).

ص ١١٣ (المختار من العقد الاجتماعى، چان چاك روسو، ترجمة عبد الكريم أحمد - مراجعة توفيق إسكندر، مكتبة الأسرة سنة ٢٠٠٠م.

ثالثًا: ملاحقة التقدم العلمى المعاصر:

ومن أولى واجبات شباب العلماء، اللحاق بتطورات العصر فى العلوم والتكنولوچيا والصناعات بفروعها المتنوعة، ويحتاج ذلك إلى قدرات خاصة ومهارات عالية لاجتياز العقبات التى تضعها جامعات ومعاهد البحوث والمصانع فى الغرب لحرمان دول العالم الثالث من الظفر بأسرارها، ولهم فى كيفية حصول الباكستان على أسرار القنبلة الذرية وتصنيعها خير أسوة.

وسيتحقق قوله تعالى: ﴿**فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ**﴾ [الرعد: ١٧].

ونسأل الله تعالى النصر للأمة، والهداية والتوفيق لشبابنا.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

مصطفى بن محمد حلمى

الإسكندرية فى ٣ من ذى القعدة ١٤٢٣هـ
٦ من ينـاير ٢٠٠٣م

مقدمة الطبعة الأولى

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسوله وآله أجمعين

وبعد . . .

فلهذا الكتاب قصة، تتلخص في واقعة حدثت معي، إذ جاءني طالب بكلية التربية بجامعة الزقازيق مرة يطلب الحديث معي بعد إحدى المحاضرات، واسترعى انتباهي أنه ليس من طلاب القسم الذي انتدبت لإلقاء المحاضرات به، بل جاء من كلية أخرى ليحضر كمستمع نظرًا لميله للدراسات الإسلامية النابع من ولعه بالإسلام نفسه، عله يجد فيها مخرجًا لما يعانيه - ويعاني معه الشباب المسلم - من إحساس بالقلق والألم مع عجز عن اتخاذ موقف ثابت، تطمئن إليه النفوس وتستقر به القلوب الشابة، فطلبت منه شرح علة القلق والاسى المرتسمين على وجهه، مهونًا عليه الأمر، غير أنه استطرد في حديثه معبرًا عن البلبلة التي يعاني منها، وسط موجة الهجوم العارمة من المذاهب والنظريات والفلسفات التي تحاول اكتساح صفوف الشباب، وعبر لي عن عجزه عن مواجهة هذه التيارات، إذ لا تسعفه حصيلته المتواضعة من الثقافة الإسلامية للقيام بهذا الدور، فضلاً عما يعانيه من مصاعب لحرصه على الاستمساك بالإسلام عقيدة وعبادة وسلوكًا، وسط الفتن التي تهب عليه من كل ناحية. كما عبر لي عن حيرته في تشخيص أدواء أمته وكيفية معالجتها، ثم أتبع ذلك كله بأن طلب مني ومن كل المهتمين بالدراسات الإسلامية، الأخذ بيد الشباب لإنقاذهم من المخاطر التي يتعرضون لها ليل نهار. ورأيتني أتوقف برهة مستغرقًا في التفكير، إذ أحسست بمدى المسئولية التي ألقاها على كاهلي بل على كاهل جيل بأكمله، لتأدية واجبه نحو البراعم الجديدة المتفتحة.

وما أن وعدته بإجابة طلبه، حتى صافحني مسرعًا بنشاط الشباب وحيويته حتى غاب عن عيني وكأنه ازداد خفة ونشاطًا حيث ألقى عليّ بما كان ينوء هو بحمله.

قلت فى نفسى:

الحمد لله الذى ألف بين قلوب أجيال المسلمين، ولم يجعلها نهبًا للصراع الذى تشكو منه مجتمعات أخرى، فها هو الجيل الجديد من الشباب يطلب التوجيه والنصح، ويبحث لدى سلفه عن حل مشاكله، لأن اللقاء بينهما على أساس التوحيد والإيمان (تبنى الأجيال جيلاً بعد جيل، وتنمى علائقه وروابطه، وتنفى عنه الدخيل والغريب والفاسد، وتؤصل الأصيل والصحيح)[1].

وتقدمت بهذا البحث إلى المؤتمر العالمى لتوجيه الدعوة وإعداد الدعاة الذى عُقد بالمدينة المنورة خلال الفترة ٢٤: ٢٩ صفر ١٣٩٧هـ - ١٢: ١٩ فبراير سنة ١٩٧٧م وكنت موفدًا من قبل جامعة الرياض بالمملكة العربية السعودية.

وقد راعيت حينذاك حال المخاطبين من دعاة الإسلام وعلمائه الذين اجتمعوا فى هذا المؤتمر، فأوجزت طرق العلاج مكتفيًا بالإجمال دون التفصيل.

ولكن عندما نويت إصداره فى كتاب رأيت إتمامه بضم بحث ثانٍ لبيان أوجه التباين والاختلاف بين الإسلام وبين الفلسفات الوافدة من الخارج، متبعًا المنهج المقارن لإظهار سمو العقيدة الإسلامية على سائر العقائد وألوان الفكر الإنسانى السائدة فى العالم، ويحتل هذا المبحث الجزء الأعظم من المشكلات التى يعانى منها الشباب المسلم، لأنه يتصل بالعقيدة - أى بأهم مقومات الإنسان المسلم (فقد تحولت الأهداف الصهيونية لتدمير العالم - وخاصة العالم الإسلامى وهدم الأديان - وخاصة دين الإسلام، قد تحولت إلى مذاهب فلسفية واقتصادية واجتماعية)[2].

ومن شواهد المعركة القائمة على أشدها الآن، أنها تتوج أعمالها بالنفاذ إلى عقول المسلمين وقلوبهم لاستئصال العقيدة من وجدانهم وتحويلهم إلى صور ممسوخة من نتاج الثقافة الغربية ومثلها.

---

(١) أنور الجندى: مشكلات الفكر المعاصر فى ضوء الإسلام ص١٦٧/١٦٨ من سلسلة البحوث الإسلامية - غرة جمادى الأولى ١٣٩٢هـ - يونيو ١٩٧٢م.

(٢) أحمد صالح محايرى: المذاهب والاتجاهات الإلحادية والمعادية للإسلام ص٦٦ (بحث مقدم لمؤتمر الدعوة والدعاة).

إننا نعلم أن الصراع مع قوى الاستعمار الغربى الصليبى والصهيونى قد استمر عدة قرون، وأنه طوال مده وجذره، كان يبغى الاحتلال العسكرى وغزو الأراضى وفرض السيطرة السياسية والاقتصادية، ولكن هذه المعارك بلغت ذروتها حاليًا بعد احتلال إسرائيل للقدس، ثم التطلع لما بعدها، ولا تبعد القدس عن مكة أو المدينة إلا بضعة أميال!!.

ولهذا فإننا أحوج ما نكون الآن - وطلائعنا من الشباب كذلك - إلى الثبات والتواصى بالحق والتواصى بالصبر - فلا ينبغى أن نسمح بمظاهر الجذر فى الأمة الإسلامية أن تزعجنا أو تدخل اليأس فى قلوبنا إذا أيقنا أننا أصحاب الأيدولوجية الصحيحة الكاملة، وهى الأصل فى التطبيقات التشريعية فى الاقتصاد والسياسة، والركن المكين فى أنظمة حياتنا الأسرية والأخلاقية وعلاقتنا الدولية، وحجر الزاوية فى نظرتنا إلى الكون والحياة، ومعرفتنا لدور الإنسان وأهدافه ومسئولياته.

وإزاء جهود علماء المستشرقين وغيرهم المتجهة لإضعاف مثل الإسلام وقيمه العليا من جانب، وإثبات تفوق المثل الغربية وعظمتها من جانب آخر، وإظهار أى دعوة للتمسك بالإسلام بمظهر الرجعية والتأخر[1] نقول:

إزاء هذه الجهود التى نجحت إلى حد كبير، نرى المساهمة فى وضع خطة مضادة تعتمد على نقد الأساس الفلسفى للحضارة الغربية، دون النتائج المزدهرة لهذه الحضارة فى الإنشاء والتعمير واستخدام أساليب العلوم التجريبية لتسخير ما فى الأرض لتحقيق حياة أفضل، فمن الأخطاء المعترف بها أننا استوردنا المذاهب الفلسفية والأنظمة الاجتماعية والسياسية وتأخرنا كثيرًا فى تعلم فروع العلوم التجريبية والاستفادة بنتائجها، بينما سبقتنا اليابان مثلاً لأنها عكست الآية.

لهذا كله، فإن المسلم المعاصر - طالب الدراسات الإسلامية فى الكليات والمعاهد والمدارس - وكذلك المثقف الحريص على مسايرة عصره - كل منهما يحتاج لمعرفة أبعاد المعركة المستهدفة عقيدته، وغرضنا تنوير الأذهان بسمو ما يضمه المسلم بين صدره من عقيدة عظيمة تسمو على كل ما عرفته البشرية وتعرفه من عقائد ونظريات وفلسفات.

---

(١) أ.د. عبد الكريم عثمان - معالم الثقافة الإسلامية ص٩٩.

وتنوير الأذهان ليس سوى نقطة البداية لإيقاظ الهمم وشحذها للعمل، فإن الفكر وحده (ليس في ميزان الإسلام بشيء، والتدبر وحده ليس في ميزان الإسلام شيئًا ما لم يتحول إلى فهم. ليس لأن الفكر ليس ثمينًا في نظر الإسلام، ولا أن المشاعر غير ثمينة في تقدير الإسلام، ولكن الإسلام نظام متكامل لا يقبل من الإنسان أن يعمل بجزء منه، بل يريدمناأنيتكامل فكرًا وشعورًا وعملاً وسلوكًا)[1].

أعود مرة أخرى لأذكر القارئ الكريم بالوعد الذى قطعته على نفسى أمام أحد طلابنا كما قلت فى صدر هذه المقدمة، وها أنذا أفى بوعدى، وأدعو الله تعالى أن يوفقنى للصواب، وأن ينفع به شباب المسلمين، وأسأله عز وجل الإخلاص والقبول.

مصطفى حلمى

الإسكندرية فى: ٨ شعبان سنة ١٣٩٧ هـ.

٢٤ يوليــو سنة ١٩٧٧م.

---

(١) محمد قطب - الفكر الإسلامى كبديل عن الأفكار والعقائد أو الأيدولوجيات المستوردة محاضرة ألقيت فى الندوة العالية للشباب الإسلامى بالرياض) - ونشرت بكتاب (قضايا الفكر الإسلامى المعاصر) ص٤٠٤.

القسم الأول

المخاطر
التى تواجه الشباب المسلم
وكيف نتوقاها؟

ظاهرة التدين بين الشباب المسلم:

يلاحظ أن ظاهرة تدين الشباب فى العالم كله تثير التعليقات المتنوعة، فالبعض يرجعها إلى انغماس العصر فى مادة طاغية، أصابت الأرواح والعقول بالاضطراب، وزادت من شقاء الإنسان بدل أن تيسر له أمره. فعمت الشكوى من حضارة العصر بواسطة أبنائها أنفسهم، منهم الكاتب الإنجليزى ادوارد بوند الذى يرى أن علوم العصر وتقنياته قد أمدتهم بقوة المارد، لكنها كذلك أمدتهم بأخلاق المارد وأهدافه، وهى أخلاق وأهداف تنطوى على خبث وشر وتدمير[1].

ربما ينطبق هذا التفسير على عودة الشباب فى أوروبا كحركة رد فعل للظروف التى مرت بها القارة من حيث سلطان رجال الكنيسة على التفسيرات العلمية، وموجات التشكيك على أثر ظهور التقدم العلمى فى عصر النهضة، إذ أن الابتعاد عن الدين كان عامًا شاملاً، ومتصلاً بعوامل جذرية مرت بالمجتمعات هناك. أما فى العالم الإسلامى فقد انزوت مؤقتًا بسبب الغزو الاستعمارى، ولكنها عادت للظهور بقوة وما استطاعت الجماهير فى شبه القارة الهندية إجلاء المستعمر الا بتحريك العقيدة فى النفوس، كما حقق المسلمون نتائج باهرة على أرض فلسطين فى المعارك الأولى عام ١٩٤٨م. وفى رأى المؤرخ البريطانى توينبى أن الدول الغربية استبدلت الفراغ الدينى بأيديولوجيات لا تفترق عن الأديان البدائية من حيث عبادة الذات، وإن تسترت تحت ستار القومية أو الاشتراكية - متمثلة فى تأليه الدولة أو الحاكم[2]، ثم عادت العاطفة الدينية تلح للظهور من جديد، لأن هذه العاطفة فى الإنسان عامة تدل على وجود عنصر نبيل سماوى وإن تناسى الإنسان وتلهى عنه حينًا قانعًا بالدون من الحياة الجثمانية المتحطمة[3].

والحديث يتصل باختلاف التصور الدينى فى الغرب عنه فى الشرق الإسلامى،

(١) من مقال للدكتور زكى نجيب محمود (حضارة تأكل نفسها) جريدة الأهرام ١/٣/١٩٧٤م.

(٢) د. احمد صبحى: فى فلسفة التاريخ ص ٢٦٠ مؤسسة الثقافة الجامعية بالإسكندرية سنة ١٩٩٠م.

(٣) د. دراز: الدين ص ١٠٠.

فإذا كان هناك مجرد عاطفة تملأ فراغًا فى النفس عند الشدائد والكروب، فإنها هنا لها جذورها فى إقامة شئون الحياة بأكملها حتى وقت قريب كعقيدة وشريعة، ولكن هذا حديث آخر لا يتصل بموضوعنا إلا بقدر إظهار اختلاف البواعث لدى شبابنا عنه هناك، فالاتجاه للإسلام من جديد عندنا له شأن آخر، إذ كانت العقيدة عميقة فى النفوس وظلت العامل المحرك طوال التاريخ حتى العصر الحديث، وآية ذلك أننا نرى العلاقة ثابتة فيما تحقق من أعمال باسم الدين، فنجحت حركات استقلالية لاستعادة الأصالة الإسلامية فى بلادنا، مثل السنوسية فى ليبيا، والمهدية فى السودان، وحركة الإمام عبد الحميد بن باديس فى الجزائر، ولم تظهر الباكستان كدولة إسلامية عندما كانت الطلائع المجاهدة من شباب المسلمين تعمل تحت راية الجهاد، مما دفع أحد القادة الإسرائيليين إلى الامتناع عن مهاجمة صور باهر - قرية قريبة من القدس - لأن فيها قوة كبيرة من المتطوعين المسلمين، ووصفهم بأنهم يختلفون تمامًا عن المقاتلين النظاميين، فالقتال عندهم ليس وظيفة يمارسونها وفق الأوامر الصادرة إليهم، بل يندفعون للقتال حبًا فى الموت، ويتحولون إلى قوة ماردة تتحدى كل شىء معقول!![1].

فلا نعجب بعد هذا إذا رأينا أعداء الإسلام يغيرون أساليبهم عندما قوبلوا بعقيدة الإسلام كعقبة كؤود، فالتفوا حولها وأغرقوا بلاد المسلمين بالنظريات والفلسفات، وأثاروا النعرات القومية والوطنية، وحركوا عملاءهم وألبسوهم ثياب الزعامة، وبدأوا بالخطوة الكبرى وهى القضاء على الخلافة الإسلامية[2]، ثم قطعوا أوصالها إربا إربا فسهل عليهم احتلال البلاد بعد تجزئتها، وفعلاً مضت الحملات بمؤامراتها الظاهرة والخفية إلى غاياتها، فاحتلت انجلترا مصر والسودان والهند، واحتلت فرنسا أرض الشام وتونس والجزائر ومراكش، واستولت إيطاليا على ليبيا والحبشة، وافترست روسيا المسلمين بعد الثورة الماركسية ونكلت بهم وشردتهم

---

(١) جلال العالم: دمروا الإسلام أبيدوا أهله ص٥٩.

(٢) يُنظر كتاب (الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية) دراسة حول كتاب (النكير على منكرى النعمة من الدين والخلافة والأمة) للشيخ مصطفى صبرى، ط دار الدعوة بالإسكندرية ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.

ومزقتهم كل ممزق بعد أن خدعتهم فى البداية لتضمن تأييدهم فكان جزاؤهم جزاء سنمار)[1] ونجح هذا المخطط المحبوك، المرسوم بعناية فى أروقة وزارات الاستعمار وفقًا لمصالح الغرب الظافر فدخل بلاد الإسلام بقصد الكسب وتولى الشئون مباشرة، ثم استطاع بواسطة المؤامرات المختبئة فى سراديب الجمعيات السرية - لاسيما الماسونية - أن يلحق النكبات والكوارث، ولكن عجز على حد قول هانوتو وزير خارجية فرنسا، أن يثبط من عزائمهم.

ولمثل هذه العبارة، وغيرها على ألسنة رجال الاستعمار الغربى وساسته، مغزى يلفت النظر، فإن صمود الأمة بالرغم من الكوارث والنكبات التى حلت بها - لا سيما فى القرن الأخير - دليل ما بعده دليل، على أن مقومات كيانها العقدى ثابتة[2]، وأن بوسعها النهوض بعد الكبوة التى طالت لتأخذ بزمام الأمور من جديد، فمازالت الأمة الإسلامية مدعوة لقيادة العالم كله بعد أن اضطرب وتخبط عندما قطع صلته بالله سبحانه وتعالى: قال تعالى ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

فبالرغم من كل ما أصيب به المسلمون من علة وضعف فإنهم (هم الأمة الوحيدة على وجه الأرض التى تعد خصيم الأمم الغربية وغريمتها ومنافستها فى قيادة الأمم. وأن تقودها إلى الفضيلة والتقوى، وإلى السعادة والفلاح فى الدنيا والآخرة)[3].

فالمسلمون على علاتهم موئل الإنسانية وأمة المستقبل.

التدين وعوامل ظهوره:

للمشاكل والصعوبات التى يواجهها الشباب المعاصر جذور ممتدة منذ سنين طويلة، ولكن ما العلاقة هذه المشاكل وظاهرة التدين؟

---

(١) أوجين يونغ: الإسلام وآسيا أمام المطامع الأوربية ص١٥٦ مطبعة النهضة بمصر ١٩٢٨م. وهو تتمة كتاب (استعباد الإسلام) وعنوانه غنى عن التعليق .

(٢) يُنظر كتابنا (الإسلام والأديان) دراسة مقارنة دار الدعوة ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.

(٣) أبوالحسن الندوى: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص٢٦٤، دار الكتاب العربى - بيروت ١٣٨٧هـ ١٩٦٧م.

لكى نقترب من الإجابة الصحيحة، علينا عقد المقارنة بين الجيل الحالى والجيل السابق. إننا نرى أن هذا الجيل قد تعرض لأنواع من المصاعب أشد وأقسى من الجيل السابق، فقد واجه لونًا جديدًا من الاستعمار، فبعد حصول بلاده على الاستقلال وتمتعها بالحرية الظاهرة فى إدارة دفة أمورها، ظهر لون آخر من الاستعمار هو الاستعمار الاستيطانى الذى يضرب جذوره فى باطن الأرض، فينشئ دولة معترف بها دوليًا بالباطل، ويغلف وجوده بعقيدة، ويقوى شوكتها بدولتين كبيرتين حتى لم تعد تجاهر بما جاهر به المستعمرون من قبل بأنهم جاءوا بصفة مؤقتة ليعودوا أدراجهم، ولكنها أقنعت العالم بأنها جاءت هنا لتبقى مستقرة على حساب سكان الأرض الأصليين الذين اجتثتهم من جذورهم ورمتهم من وراء أسوار منازلهم وقراهم ومدنهم ليتحولوا إلى شعب من اللاجئين(١).

وجاءت الطامة الكبرى عقب حرب الأيام الستة، فأخذ الألم يعصر قلوب المسلمين بعامة وشبابهم بخاصة لأن المسجد الأقصى أصبح أسيرًا فى أيدى اليهود، وظهر مصطلح الأمر الواقع تعبيرًا عن غلبة القوة على الحق فتغيرت المعايير وتبدلت الموازين. وظهر من يسأل مستفسرًا كيف يُهزم المسلمون بواسطة قلة من اليهود؟ أو بعبارة أصرح كيف يهزم الباطل الحق؟ والتبس الأمر على الكثيرين!!

وأخذ الشباب المسلم ينظر إلى ما حوله متألمًا، مستفسرًا، إذ رأى أن الجلاء عن الأرض أصبح سرابًا، لأنه ترك استعمارًا أشد وأدهى، ثم رأى أن اعتناق الفلسفات والمذاهب الواردة والأخذ بها فى مجالات التعليم وأنظمة الاقتصاد والسياسة وغيرها لم تؤد إلى التقدم المطلوب بل على العكس أدت إلى المزيد من التقهقر، لأن عملية النقل لم تفرق بين الغث والثمين، بل قلدت كل ما هو سيئ وأهملت الأسلوب الكفيل بملاحقة التقدم الحضارى فى شطره المادى، واستيعاب محاسنه دون مساوئه. (إذ لم يفرق المقلدون بين الحضارة الصناعية والحضارة الأخلاقية، ولم يميزوا بين ما يلائم وما لا يلائم، فقاسوا الأخلاق والآداب وسنن الجماعات

(١) يُنظر كتابنا (نكبة فلسطين من منظور فقه التاريخ) دار الدعوة بالإسكندرية ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.

وروابط الأسر والعقائد والمذاهب على السيارات والطائرات والغواصات والمدمرات، وفتنوا بالمسرح والسينما)[1].

وكما يفيق المغمى عليه ويعود إلى نفسه، كذلك أخذت الطلائع الشابة الواعية ترقب فشل الأنظمة المستوردة من الشرق أو الغرب التى أدى تطبيقها إلى المزيد من الفشل والهوان، وأدركت أن هذا الفشل يرجع إلى بُعد الأمة عن طريقها، وانقطاع صلتها بالعقيدة والتراث، وأخذ صوت الإسلام يدوى بين الصفوف. لِمَ الاستغراب إذن من عودة ظهور التدين بين شباب الإسلام؟

إن العقيدة لم تختف أصلاً بل ظلت باقية، كل ما هنالك أنها اختفت وراء ستر رقيق. ذلك أنه ينبغى التمييز بين العوامل الجوهرية للنهوض بالأمم واندثارها وبين مظاهر التدهور والضعف التى تنتابها بين حين وآخر كعوارض مرضية تظهر لتختفى.

تحليل الظاهرة وكيفية توجيهها:

وعلى الداعية الإمساك بهذه الظاهرة - ظاهرة تدين الشباب واستمساكه بالإسلام - وجعلها باعثًا لتحقيق الآمال فى النفوس،فما الشباب إلا تجسيد لآمال المستقبل وتعبير عن استعادة الأمة لحيويتها بسواعد أبنائها.

على أن الطريق لن يكون مفروشًا بالورد، فما ظهور الشباب المتدين إلا بمثابة مولود جديد خرج إلى الحياة بعد آلام المخاض التى عانت منها الأمة الإسلامية ما عانت. فإذا لم يحظ بالعناية الكافية، ربما حدثت ردة لا يعلم إلا الله مدى آثارها.

والآن وقد استدرجنا إلى فتنة القوميات والعصبيات الإقليمية ثم الأيدولوجيات المعاصرة، على الدعاة تعميق الوعى والتسلح بمعرفة أساليب الأعداء فى الغزو لإمكان الدفاع عن النفس ومواجهة الأمواج العاتية التى تريد اكتساح العالم الإسلامى بأسره واقتلاع جذور عقيدته.

---

(١) أنور الجندى: يقظة الفكر العربى ص٢٣٤.

حركة اليقظة فى مواجهة التغريب (مرحلة ماب ين الحربين) مطبعة زهران ١٩٧٢م.

وعلى الدعاة استثارة القيم الكامنة فى القلوب، فمهما ظهر على السطح من صور الباطل ودعاته فإن عقيدة الإسلام كامنة، وعمل الدعاة ومهارتهم تظهر فى تحويلها إلى عامل فعال، فقد حركت هذه القيم المسلمين وجعلتهم جنودًا دائمين للمحافظة عليها (وهى التى كانت تجمعهم كلما فرقهم المفرقون، أو تعيد الضالين إلى الإيمان كلما ضللهم المضللون، وهى التى كانت تناديهم ليكونوا دائمًا متأهبين حذرين)[1].

ولا يُتصور ونحن فى معركة قد تكون هى الفاصلة بين بقائنا كأمة إسلامية وبين كيان غريب يمثل قمة التحدى الصهيونى والصليبى. نقول: لا يتصور أن يغفل الدعاة عن واجبهم فى هذه الظروف والعناية بإيقاظ العقيدة فى نفوس شباب المسلمين لأننا نواجه التحدى باسم الدين أيضًا فى إحدى صورتين:

الأولى: صورة التدين الصريح المعلن بلا مواربة، وعلى سبيل المثال نقتبس نموذجًا من أقوال بن جوريون، قال: (على إسرائيل أن تتمسك بمبادئ أنبياء العبرانيين القدامى)، (إسرائيل ستحقق وجودها عندما تصبح كسارية على رأس جبل، بالنسبة إلى أمم العالم) ناقلاً هذا القول عن نبيه المفضل أشعيا[2].

وبنفس الحماس الدينى، مازالت القوى الصليبية تشهر سلاحها فى وجه المسلمين فى أفريقيا والفلبين وأريتريا وأندونيسيا وغيرها.

الثانية: كذلك ظهر فى العصر الحديث ما يسمى (بالأيدولوجيات) وهى فى حقيقتها وجوهرها أديان بغير اسم الأديان (وهى النظم التى يؤمن بها الناس كدين ورسالة، السياسية والنظريات الاقتصادية مثل الوطنية والديمقراطية والاشتراكية والدكتاتورية والشيوعية وهى أقل مسامحة لمن لا يدين بها وأشد قسوة على منافسيها)[3].

---

(١) د.. صلاح الدين المنجد: رسائل إلى شاب متشكك ص٩٥.
دار الكتاب الجديد - ١٩٧١م.

(٢) أبوالحسن الندوى: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص٢٦٩.

(٣) ياكوب باريون: ما هى الأيديولوجية؟ ص٩٨ الدار العلمية ٩١هـ/ ٧١م ص٧٩.

وآية ذلك أن أصحاب الأيديولوجيات يضعون نظرياتهم فى قوالب تضاهى العقيدة الدينية تمامًا فإنها تتسم بطابع الاعتقاد الإيمانى إلى حد اعتبار المعتنق للأيدولوجية بمثلها المقاتل والمدافع عن حقيقتها المطلقة[1] وبكلمة واحدة إنها عقيدة، إذ يصفها أصحابها بصفات الرسالات السماوية ويضعون لها ركائز تتمثل فى إرادة التغيير والتوجه للبشر بالخطاب ومن ثم تتطلب الاتباع، كما تدعى تقديم التفسير الشامل للعالم وتطالب أتباعها بالعمل فى سبيل حمايتها ورفع راية الكفاح ضد مخالفيها.

فالأيدولوجية تريد تغيير العالم عن طريق الناس الذين يعتقدون بها وتحتاج إلى مادة بشرية قابلة لمخاطبتها لتوقظ فى نفوسهم تلك الطاقات الإيمانية والإرادية التى تحتاجها لبلوغ أهدافها أى اجتماع العقيدة والعمل والهدف معًا.

ويدعى أصحاب الأيدولوجية أنهم أصحاب النظرة الشاملة للعالم التى تقدم تفسيرًا شاملاً وجامعًا للعالم. فهى فى نظرهم موقف تقييمى من العالم ثم تتحول إلى مقياس الحياة الإنسانية، وتطالب فى الوقت نفسه بسريان مفعولها على جميع الناس وكل مجالات حياتهم، والتدخل حتى فى التفسيرات العلمية!![2]

كذلك لا تفلت الفلسفة من الاتهام عندها، شأنها فى ذلك شأن العلم، لأنها لا تشارك فى الإيمان بقابلية العالم الكلية للمعرفة، وأنها تبدى موقفًا أساسيًا يختلف عن موقف كلى من الأيدولوچية والنظرة الشاملة إلى العالم.

وهذه النظرة الشاملة كما تتطلب الاتباع فإنها تنطوى على مطلب ثان بالنسبة لها، وهو الكفاح ضد أعدائها لأنهم فى رأيها يحولون دون انتشار الحقيقة وانتصارها بين الناس أجمعين.

إلى هنا يتبين لنا أن الأيدولوجية تضع قوالب دينية وتكاد تقلد الإسلام بصفة خاصة، ولكنها لأنها تصدر عن باطل، فهى تفضح نفسها عندما ترسم طريق

(١) محمد جلال كشك: النكسة والغزو الفكرى ص١٢٧.
(٢) ن. م ص ٧٦، ٧٧، ٧٩، ٨٢، ١٠٥.

دعوتها فلا بأس مـن تشويه الحقيقة أو تلفيـقها متى كان الأمر مـتعلقًا بوصم نظرة العدو ودفع تصرفاته العـملية كما أنهم يغذون خيال أتباعهم بـالتصورات الوهمية، عندما يقومون بوصف عالمهم الخاص، لكنهم يقدمون التضحيات ويتحملون الآلام بغية الوصول إلى الهدف المنشود[1].

نود القول من كل هذا: إن كان أصحاب الأيدولوجـيات يترسمون خطانا، فإننا أولى بإظهار الإسلام كعقيدة، ونظام حيـاة وتفسير للكون والحياة والإنسان بطريقة تجعلنا فى موقف التحدى.

*****

---

(١) ن. م ص٩٤.

نوعيات المشكلات التى تواجه الشباب
فى العالم الإسلامى.. وآثارها على الدعوة

بالرغم من افتقادنا للإحصائيات المبنية على الاستفتاء والبحوث الحقلية الاجتماعية والدراسات اللازمة لتصنيف الشباب والمشكلات التى تواجهه، بالرغم من ذلك النقص فى وسائل الدراسة، فإننا سنحاول استبدالها بالتقسيم الجغرافى والظروف التاريخية الواحدة التى مرت بها بلدان العالم الإسلامى، فضلاً عن طبيعة المشاكل العامة التى تواجهه، مع الإقرار بأن لكل بلد لونًا خاصًا من المشاكل، إلى جانب التقسيم الأفقى للشباب داخل البلد الواحد.

ففى العصر الحديث، ومنذ القضاء على الخلافة العثمانية بتدبير اليهود والقوى الصليبية معًا. فأخذوا يقسمون البلاد الإسلامية فيما بين الدول الاستعمارية بموجب اتفاقيات ومعاهدات. ثم نفذت خطة واحدة لإبعاد المسلمين عن الإسلام. بدأت على يد مصطفى كمال أتاتورك - المنتمى لحركة الاتحاد والترقى[1] - وكان هدفه اجتثاث الإسلام من جذوره، إذ ألغى الخلافة وأعلن أن الدولة أصبحت لا دينية، وفرض الكتابة بالحروف اللاتينية وألغى التعليم الدينى وأوجب الأذان باللغة التركية وقراءة القرآن بالتركية أيضًا، وحرم تدريس الدين بالمدارس وأطلق على الإسلام الكتاب يهاجمونه ويهاجمون القرآن، وأبطل تحكيم الشريعة الإسلامية واستبدل بها القوانين الوضعية الأجنبية.

وأصبحت حركة التجديد والتغريب التى قادها كمال أتاتورك (١٩٢٤ - ١٩٣٨) فاتحة للتغيرات التى حدثت فى العالم الإسلامى كله، فأصبح كل من ينهض فيها للإصلاح والتشكيل الجديد للمجتمع يقتفى آثاره ظنًا بأن سر النهضة إنما هو التجديد والتغريب، ليس غير، ونظروا إلى كمال أتاتورك كرمز التقدم

(١) حركة الاتحاد والترقى - باتفاق جميع المراجع المعاصرة - حركة وجهتها واستغلتها الماسونية والصهيونية وأعداء الدولة العثمانية من الإنجليز والفرنسيين والروس والألمان.
وينظر محمد جلال كشك: حوار فى أنقرة ص٥٧.

و(الثـورة) فى كل مجتـمع متـحـرر فى العالم الإسـلامى والمثل الأعلى للقـادة والسياسيين والمفكرين المسلمين[1].

وسار تيار التـجديد - سواء من غرب أوروبا أم شرقـها - يمضى قدمًا ليـحفر الأخاديد فى بلدان العـالم الإسلامى على يد أبنائه أنفسـهم!! أولئك الذين سلبهم الاستعمار الثقـافى كل مقومات العزة، فقد سلبهم (الثقـة بأنفسهم، بحضارتهم، بتراثهم، بنبـيهم، بقـرآنهم، بربهم عز وجل، وغرس فى مكـان ذلك كله الغرب وحضـارته وثقـافتـه وأفكاره ونظمه وتقـاليده ومـثله وقيـمه، وكل مـا يجىء من عنده)[2].

وفتح جيل الشباب المسلم عينيـه على هذا الواقع المرير الذى قدم إليه منذ نعومة

---

(١) ينظر كتاب أبوالحسن الندوى: الصراع بين الفكرة الإسلامـية والفكرة الغربية فى الأقطار الإسلامية - دار الندوة للتوزيع - لبنان ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م. حـيث عالج تأثير خطوات أتاتورك فى البـلاد الأخرى مثل مصر والباكستان وإيران وأندونيسيا وتونس والجزائر.

ويتبـين من إحصائية حـجاج بيت الله الحرام هذا العـام ١٣٩٦هـ. أن عدد حجاج تركـيا بلغ ١٣٧٢٩١ حاجًا ويـمثل أكبر عـدد وبفارق كبيـر بينه وبين العدد الذى يليه ويمـثله حجاج نيجـيريا ويبلغ ٦٦٨٧٣ حاجًا. ويمكن للداعية اتخاذ تركيا كنموذج لمزية الإسلام فى صعوده وقوته، إذ بعد نحو نصف قرن من الزمان حيث عـانت فيه تركيا ما عـانت بسبب إبعادها القسرى عـن الإسلام، ظهرت الحقيقـة تتمثل فى استمساك الشعب بعقيدته بالرغم من كل مـا حدث، وبزغ فجر جديد فى شكل حزب السلامة وعمره ٤ أعوام وقد احتل المركز الثالث بين أحزاب تركيا (بعد حزب البعث الجمهورى وعمره ٥٣ عامًا).

ثم تحقق أخيرًا فى نوفمبر سنة ٢٠٠٢م - فوز حزب الـعدالة والتنمية ذى الجذور الإسلامية والذى خرج من عبـاءة الأحزاب الإسـلامية، وتجـربة الحركة الإسـلامية الـذكية وبصـمات السيـد نجم الدين أربكان شخـصيًا، وهذا الفـوز بعدد هائل من المقاعـد (٣٦٤ مقعـد) من أصل ٥٥٠ مقعـدًا ... وهو أمر لم يحدث فى تركيا منذ عشر سنوات على الأقل).

من مقال بقلم د/ محمد مورو: نتائج الانتخابات التركية .. مجلة المختار الإسلامى بالقاهرة شوال سنة ١٤٢٣هـ / ديسمبر سنة ٢٠٠٢م.

ونقلت وكالة أنبـاء الشرق الأوسط أنه تردد صوت الأذان والدعـاء في مقر رئاسـة الوزارة التركيـة للمرة اولى مـذ تأسيس تركيا الحـديثة العلمانية سنة ١٩٢٣م وتم فتح مكبرات الصوت فى مـقر الرئاسة خلال صلاة الجمعة الأخيرة من شهر رمـضان المبارك ... وسمع صوت الأذان فى جميع طوابق مبنى الحكومة (جريدة الأخبار ٢٦ رمضان سنة ١٤٢٣هـ - أول ديسمبر سنة ٢٠٠٢م).

(٢) د. يوسف القرضاوى: حتمية الحل الإسلامى ص٣٥٥. مؤسسة الرسالة ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م.

أظفاره، بينما نشأ على الجهل بالإسلام لأنه لا يعرف فى كثير من الأحوال - أو أقصاها - إلا بعض العبادات كالصلاة والصوم، والأفكار الدائرة حول تاريخه ورسوله ﷺ، عرفها على دفعات بمنهج التجزئة فى المدارس أو الجامعات، أو التقطها من فم عالم أو سمعها من محاضر.

ولذلك نرى أن الشباب فى العالم الإسلامى يخضع لعوامل متشابهة من حيث استهدافه خارجيًا للحملات المتواصلة لتفريغ عقله وقلبه من المضمون الإسلامى وحشوه بألوان أخرى من المذاهب والأفكار، داخليًا من حيث معيشته فى مجتمعات لا تحيا وفقًا لتشريع الإسلام ونظمه وأخلاقياته.

والحق أننا لجأنا إلى هذا التحليل بحثًا عن جذور المشاكل ونشأتها، أما علاجها فيتم فى محيط الحياة والواقع، إذ أن الداعية عندما يقوم بمهمته سيجد أمامه آثار هذه الظروف بأنواعها الخارجية والداخلية مجسدة فى نفوس الشباب، أى ستصبح أخيرًا بمثابة وجهين لعملة واحدة.

وبالمنهج نفسه، سنضع أمام الداعية تصنيفًا تقريبيًا للشباب فى البلدان الإسلامية كالآتى:

- فئة من الشباب الحريص على الاستمساك بالإسلام ويحتاج إلى تعميق مفاهيمه للصمود فى وجه الغزو الثقافى الخارجى بخططه وأساليبه المتجددة الماكرة.

كما يحتاج أيضًا إلى تزويده بالمعلومات التى تتيح له فهم ظروف ضعف بلاده وتأخرها والسبل الكفيلة بإخراجها من محنها.

كل ذلك ضرورى لشد أزره حتى لا تميل به هواجس القلق عندما يقارن بين مثل عليا يريد تحقيقها وواقع مؤلم يعيش فيه.

- وفى الطرف المقابل تقبع فئة من الشباب الذى اضطربت موازين فكره وألحت عليه الشكوك وهو فى الغالب ممن تلقى دراساته العليا خارج وطنه، إذ يلاحظ ما أحرزته الأمم من تقدم فى العلم والاختراع والتكنولوجيا، وما حققته من بسطة من

القوة والسلطان برغم عدم عنايتها بالدين، وتوجيهها الشباب توجيهًا ماديًا خالصًا[1].

ويقدم لنا ماسينيون خطة الغرب إزاء شبابنا فى كلمة موجزة قال فيها (إن الطلاب الشرقيين الذين يأتون إلى فرنسا يجب أن يلونوا بالمدينة المسيحية)[2].

- وبين هاتين الفئتين يكثر عدد شبابنا الذى يأخذ الإسلام بالتبعية للوالدين وتقليدًا لما يراه فى المجتمع، فيعتنق الإسلام دينًا ولكنه لا يعرف فرائضه وواجباته ولا يؤديها كما ينبغى.

- ويجب أن نأخذ فى الحسبان أيضًا شباب المسلمين الذى يعيش كالأسير فى مجتمعات غير إسلامية، والبعض منهم يرفع راية الجهاد، كالشباب فى فلسطين وأريتريا والفلبين ومناطق أخرى فى الاتحاد السوفيتى وغيره من البلدان، وهم لا يطالبون إلا بحق الحياة الكريمة شأنهم فى ذلك شأن باقى المواطنين.

ونقترح إنشاء (مركز دائم يعنى بالأقليات المسلمة) مع مد يد العون المادى لهم وإرسال الدعاة لتعليمهم الإسلام واللغة العربية وإرشادهم إلى أمور دينهم للمحافظة عليهم من الانقراض أو الضياع وسط المجتمعات التى يعيشون بها، أما المسلمون تحت سيطرة الدول الشيوعية فلا أقل من توجيه إذاعات خاصة لهم تعلمهم دينهم وتشد أزرهم ما دام الاتصال بهم متعذرًا، ولكن لا تعدم الحكومات وسائل الضغط الاقتصادى والسياسى لتوفير الحرية الدينية لهم[3].

(على سبيل المثال) نشرت مجلة الدعوة بالرياض فى عددها رقم ٥٥٣ الصادر فى جمادى الثانى ١٣٩٦هـ، استغاثة مسلمى بلغاريا على لسان اتحاد الطلبة المسلمين فى شرق أوربا، للمطالبة بتكوين لجنة دولية للنظر فيما يجرى من امتهان لحقوق الإنسان هناك (ص٣٤، ٣٥).

---

(١) أنور الجندى: يقظة الفكر العربى - حركة اليقظة فى مواجهة التغريب (مرحلة ما بين الحربين) مطبعة زهران - مصر ١٩٧٢.

(٢) كما ورد فى التقرير الذى قدمه الدكتور محمد خلف الله أحمد إلى مؤتمر علماء المسلمين - مارس ١٩٧٠ - مجلة الهلال فبراير ١٩٧٣م ص١٢٧.

(٣) ينظر كتاب الأستاذ محمود شاكر: المسلمون تحت السيطرة الشيوعية، مؤسسة الرسالة بيروت ٩٥هـ/ ٧٥م.

الشابات:

وربما كانت أزمات المرأة فى البلاد الإسلاميـة أشد وأعتى، ونظرًا لدورها الكبير فى تربية الأجـيال، فقد نفذت الخطط الـتبشيرية عن طريـق المدارس والإرساليات الأجنبية فاهتمت بالفـتاة المسلمة تعليمًا وتوجيهًا، ثم اجـتذابًا بواسطة أجهزة النشر والإعلام لتقليد شابات الغـرب فى الأفكار والعادات والأزياء، تحت دعوى التحرر وقضية المساواة بين الرجل والمرأة.

وظهر التشتت فى نفسية الشابة المسلمة الحريصة على دينها بين عقيدتها وظروف الحياة الـطارئة على مجتمـعاتنا فى الاختلاط ومـغادرة المنزل للمشاركـة فى العمل والتوزع بين مـشاغل بيتهـا وواجبات الأمومة للمـتزوجات - وبين مشـاكل العمل ومسئولياته، فضلاًعن حيرتها فى مواجهة تيار التغريب القوى الذى سحب شابات كثيرات بمده الطاغى.

ولا أظن أنه يمكن إضافة الجديد للأبحـاث المستفيضة التى ساهم فيـها جهابذة الرعيل الأول فى الفكر الإسلامى المعاصر من حيث الشبهات حول قضية المرأة[1].

وبقى على المهتمـين بالدعوة مساعدة أخواتنا للقيـام فى وجه الفتنة، عن طريق تنظيم أنفسهن، وتشجيعهن على الاستمساك بالفضيلة والحشمة والصلاح والتقوى، ومساندتهن - بواسطة دورات تعليمية إسلامـية خاصة لهن - على تكييف حياتهن الشخصية والعائلية والاجتماعـية وفق تعاليم الإسلام، ومدهن بالثقافة اللازمة التى تمكنهن من مقارعة السيدات المتفرنجات[2].

وليس هذا التقسـيم جامعًا مـانعًا بطبيعة الحـال ولكنه مجرد اجتـهاد حاولنا به تحديد المشـاكل وتبويبها إذ لاشك فى تداخل حـلقاته، ولكنه يساعد الداعـية على وضع يده على جذور المشاكل ومعرفة طبيعتها.

وعلى سبيل المثال، فإن هناك تقسيمًا رأسـيًا بين الشباب على أساس أنصبته من العلم والثـقافـة، فهناك من حـصل على نصـيبـه فى التعـليم حتى نهـاية المرحلة

(١) أمثال الأساتذة المودودى، العقاد، سيد ومحمد قطب، أنور الجندى وغيرهم.

(٢) المودودى: تذكرة دعاة الإسلام ص١٠١ وما بعدها، المكتب الإسلامى ١٣٩٥هـ.

الجامعية، أو من اكتفى - كرهًا أو طواعية - بالتعليم الإعدادى أو الثانوى ثم سلك سبيل الحياة العملية باحثًا عن قوته وإعالة أسرته.

بيد أن هذا التصنيف يساعدنا على معرفة طبيعة المشاكل التى يعانى منها الشباب، فقد يتعرض الشباب الجامعى لمشاكل وأزمات بصورة مغايرة لما يعانى منها الآخرون.

كذلك قد يعانى الجميع - بلا تفرقة بين المثقفين وغيرهم - من مشاكل تعمهم، كاصطدامهم بمظاهر التأخر فى المجتمع، وتعرضهم لأزمات خانقة كالمغالاة فى المهور والتشدد فى أمور الزواج وتعرض الشباب للفتن المقدمة له فى أشكال مختلفة كالأدب المكشوف وأفلام الجنس والجريمة.

وسنبدأ بعرض هذه المشاكل فيما يلى وهى تتمثل:

أولاً: المشاكل الداخلية:

١- نظام التعليم ونتائجه على عقول الشباب:

قلنا إن الشباب المثقف يتعرض لمشاكل وأزمات مغايرة لما يشكو منه غيره، وتعليل ذلك أنه يتعرض من خلال مناهج التعليم لحملة تغريبية منظمة سواء فى العلوم الإنسانية أو العلوم العملية التجريبية، مما أثر فى التكوين النفسى والأخلاقى للشباب المسلم، إذ طرأت تغييرات مقصودة للانحراف به عن التصورات الإسلامية الصحيحة.

والأدلة كثيرة فى هذا الصدد نكتفى منها بالدور الذى أداه «دنلوب» فى مصر، هذا الكاهن الذى (خلع عنه ثوب الكهنوت ودخل فى خدمة الحكومة يدير مدارسها فى خلال ربع قرن فكان يناهض القرآن مناهضة سرية متواصلة)[1].

ففى المدارس الابتدائية يكتفى بدروس دينية لا تحتل من البرنامج الدراسى إلا ساعات محدودة لا تؤثر إلا فى حالات ضئيلة، ويكون تأثيرها غالبًا بفضل النماذج القليلة المخلصة من المدرسين.

---

(١) أوجين يونغ: الإسلام وآسيا أمام المطامع الأوروبية ص١٥٧.

ثم تأتى المرحلة الثانوية التى يفصل فيها أيضًا بين الدين والحياة ومناهج الدراسة، وربما تبتعد الشقة عنهما بالمقارنة بالمرحلة الابتدائية، فضلاً عن ظهور عامل جديد، إذ عندما يشب الطلاب عن طوق الطفولة والصبا، تتفتح آفاقهم عن أسئلة جديدة ملحة تتطلب إجابات حاسمة. ويبدأون فى الخضوع لتأثير الأفكار والتيارات السائدة فى المجتمع. أما الشباب الذى يتلقى تعليمه بالمدارس الأجنبية، فمشكلته أضخم، لأنهم ضحايا الغزو التبشيرى الذى يستخدم هذه المدارس كأدوات طبيعية لتنفيذ مخططاته.

وتتلقف الجامعات بعد ذلك بعض هؤلاء الطلاب، بكلياتها المختلفة، وهى تنقسم إلى كليات عملية وأخرى نظرية كما يسمونها، ففى الأولى تختفى فيها الدراسات الإسلامية، بل يتسم طابع دراساتها بطابع النظريات والفلسفات المادية فى أغلبها، والتى تسربت إليها بسبب النقل من علماء الغرب، ويتحول الإسلام فى الكليات النظرية - كالآداب والتربية والتجارة و الحقوق - إلى فلسفة ونظريات ودراسة تاريخ الفرق والانشقاقات التى انتهى عصرها وزالت بزوال عوامل قيامها، ومن ثم تصبح الدراسة وفقًا لهذه المناهج أشد ضررًا من عدمها، إذ أنها - فى كليات الآداب مثلاً: تهز كيان الطالب وتشككه وتدفعه إلى كثير من التساؤلات فلا يجد إلا إجابات المستشرقين، ومن ثم تجتاح نفسه أعاصير الحيرة والاضطراب، وتنفذ إليها وجهات النظر الغربية فيعتنقها ويتقبلها.

وفى كليات الحقوق، تدرس الشريعة الإسلامية كمادة منفصلة ضمن القوانين المدنية والتجارية والجنائية المستمدة من التشريعات الوضعية والمنقولة من القوانين الأجنبية.

وفى كليات التجارة تحتل النظريات الاقتصادية والسياسية المكانة الأولى ولا يلتفت إلى دراسة الاقتصاد الإسلامى.

ومجمل القول،إن نظم التعليم المستوردة والمنقولة بحذافيرها من جامعات الخارج قد أدخلت فى أفكار الشباب وعقولهم الكثير مما يحتاجون إلى من يصححها لهم ويقومها فى نفوسهم لأنها فصلت بينهم وبين الإسلام.

وقد أثمرت خطط التعليم ونجحت في تجريد الشباب (من الروح الديني والعواطف الإسلامية والعقلية الإسلامية وأنشأت فيه طبيعة النفعية والتهام الحياة وتقديس المادة وعدم الاستقامة الخلقية وضعف الثقة بالنفس والشك في الدين)[1].

ولا تحتمل طبيعة الشباب قبول الطعن والنقد فقط فيما تلقاه وتعلمه، بل لابد من إحلال البديل محله، وتشكل هذه المهمة أثقل التبعات على عاتق الداعية.

ولكن مما يسهل مهمته معرفة الرابطة الوثيقة بين الأسس الفلسفية المشتركة للثقافة الغربية وبين جميع العلوم النظرية الإنسانية التي انبثقت منها جميع الأنظمة الاجتماعية من أسرية واقتصادية وسياسية وغيرها، فإذا قوض الدعامة الأساسية بالشرح والتحليل، انقض البناء وتهاوى، وهي ليست في حقيقتها سوى المفاهيم والمذاهب التي حرفت مفهوم الرسالة السماوية وجاء القرآن ليصححها، كل ما هنالك أنها استطاعت في العصر الحاضر أن تلبس لباس العلم والفلسفة. وأن تقيم باطلها على أساليب براقة خادعة في عالم اضطربت مقاييسه ونظمه[2] على أن هناك مسئولية أخرى يتحملها رجال التربية والتعليم وأساتذة الجامعات لوضع المناهج المنبثقة من عقيدتنا وتراثنا وقيمنا، لتأصيل شخصيتنا الإسلامية، وتعويض ما فاتنا بسبب المناهج المستوردة.

٢- تأخر وضعف المجتمعات الإسلامية:

يطول بنا الحديث باستقصاء عوامل الضعف والتخلف التي تعاني منها المجتمعات الإسلامية ولكن إيجازها في نقاط رئيسية ضروري لتحليل أحد المظاهر التي تشكل عبئًا على كواهل الشباب، إذ تتفتح آماله المستقبلة على رؤية أمته في مقدمة الصفوف، وينظر حوله فيرى الواقع مثبطًا للهمم!!

فكم من شاب غض مليء بالحماس والحيوية، أقدم على عمل مثمر فاصطدم بالفتور أو سوء المعاملة أو المفاسد الاجتماعية، فأقعده ذلك عن إعادة الكرة؟!

---

(١) روائع إقبال لأبي الحسن الندوي ص١٠٨ دار القلم - الكويت ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م.

(٢) أنور الجندي: مشكلات الفكر المعاصر في ضوء الإسلام ص١٦.

وحتى لا يتكرر مثل هذا النموذج، فإن معرفة الأسباب وتحليلها عن طريق الإقناع بهدوء، قد يكفل امتصاص الصدمة بين آمال الشباب المسلم، وواقع مجتمعاته المؤلم.

ولا تخرج الأبحاث الدائرة حول عوامل الضعف والتخلف فى المجتمعات الإسلامية عن اتجاهين:

الأول: التعليل بالأسباب الذاتية للمسلمين أنفسهم مثل ضعف العقيدة وخور العزيمة، وسوء الفهم لمسألة القضاء والقدر الذى أدى إلى جبرية محضة، والانصراف عن العلوم العصرية المؤدية إلى التمدين والحياة الكريمة، وفساد الأخلاق وتدليس العلماء وجور الحكام.

كل هذا أو بعضه أدى إلى انهيار الأمة فى العصر الحديث عندما صدمتها الحضارة الغربية، فى عهدها الاستعمارى، وليس من سنة الله (أن تقتل أمة امتلأت إرادتها بأن تحيى، فالمسلمون مسئولون بالدرجة الأولى عما آلوا إليه)[1].

الثانى: إلقاء التبعة على الاستعمار الخارجى والحروب المتوالية التى لم تترك الأمة تهدأ فترة لتلتقط أنفاسها، بل أخذت تكثر وتفر منذ الحروب الصليبية حتى العصر الحديث، فقد كانت دولة الإسلام بكيانها البشرى الهائل وحدودها الجغرافية الشاسعة المشتركة بين آسيا وأفريقيا وأوروبا - هذه الدولة كانت أمرًا واقعًا يؤثر فى العالم كله، ولم يسقط هذا البناء الضخم إلا بعد حروب وفتن متواصلة ظلت قرونًا، فظل يتقلص إلى أن تفكك بإلغاء الخلافة منذ نحو نصف قرن فقط.

ولولا هذه الحروب والحملات الضارية التى استنفذت قوى الأمة الإسلامية وشتت جهودها وأضعفت كيانها، لولا هذه العوامل الخارجية التى لا سلطان لدول الإسلام عليها، لما وقعت فى براثن التخلف.

ويبدأ العلاج بقيام الدعاة بتوجيه الأنظار إلى أن أسباب التخلف الحالية ليست بنت الساعة، ولكنها تولدت من توالى المحن وتراكم الخطوب بعضها فوق بعض.

وإذا كان من غير المتصور أن يشفى المريض بجرعة دواء واحدة، كذلك لا

---

(١) أنور الجندى: يقظة الفكر ص٣٢٥.

يتـصور علاج الأمم بـإجراء واحـ خاطف، لا سـيما أن أعـمار الأمم لا تـقاس بالسنين والشهور، ولذا فإن حل الا ات الحالية يحتاج إلى مثابرة وجهود متواصلة جيلاً بعد جيل، فالمهم أن نبدأ البداية الصحـيحة ولنا مقوماتنا الذاتية، فإن أصولنا التى يعبر عنها القرآن والسنة ثابتة لم تمسها يد التبديل والتحريف بواسطة البشر كما حدث لغيرنا من الأمم، ولكننا نحن الذين تغيرنا.

ويقع على عاتقنا إقناع الشبـاب المسلم أن التغيير الشـامل أمر ممكن، ولكن يبدأ بخطوة تتلوها خطـوات على نفس الطريق فلنبـدأ بأنفسنا وبمـن حولنا، نتـسلح بالعقيدة الصحيحة ونغير أنفسنا إلى الأحسن بالعلم والعمل، كليهما، وعندئذ يغير الله تعالى أحـوالنا، فإن (تحقق التغـيير الذى يقوم به القـوم - فى الآية الكريمة - سيـتم على أساس وعد الله تعالى الذى لا يخلـف الميعاد وسنته التى لن تجـد لها تحويلاً)[1].

فليبذل كل شاب مـسلم - كل فى مجاله - غاية جهده مخلصًا، مـستعينًا بالله سبحـانه، لا بغرض التميـز واحتلال الصفوف الأولى لكى يشـار إليه بالبنان، ولكن لكى يصبح نموذجًا وقدوة لغيره من الشباب، فيصبح كالعنصر المشع يجذب من حوله بتفـوقه ونجاحه، فكثـيرًا ما يصـدر الناس حكمهم على الأفكار والعقـائد من خلال أصحابها.

ويقتضى التغيـير إعادة النظر فى أسلوب حياتنا وطرق معيشـتنا لنعدلها تدريجيًا حتى تستوى قائمة مع قواعد الإسلام، والتعديل أمر ممكن ويسهل تحقيقه إذا حددنا الهدف من الحـياة الدنيـا اتجاهًا إلى خـالقها عـز وجل، عبـادة وعملاً، فـى النية والسلوك، ومعـرفة المهمـة التى نيطت بهذه الأمة كـحاملة رسالة هداية للإنسـانية كلها، ولاشك أن الالتزام بالإسـلام بواسطة القاعدة العريضة من الشبـاب سيسهم فى تهيـئة الأذهان للشعـوب الإسلاميـة والحكومات - كليـهما - ويمـثل عنصرًا ضاغطًا على المحجمين والمترددين، بعد افتضاح الجاهلية بشتى نظمها ومذاهبها.

---

(١) جودت سعـيد: حتى يغيروا ما بـأنفسهم ص٦٩. (بحث فى سنن تغييـر النفس والمجتمع) ط ١٣٩٥هـ = ١٩٧٥م.

٣- انتشار الفتن وذيوعها:

يحلو للبعض وصف العصر الحديث بأنه عصر العلم والتكنولوجيا، فيقتصرون على المظهر دون المخبر، ولو عنينا بالمخبر لوصفناه أيضًا بأنه عصر الفسق والانحلال، ويؤيدنا فى ذلك منطق الاستقراء حيث تجمعت الأدلة على شيوع الفحشاء والمنكر فى المجتمعات الخارجية - شرقية وغربية - ولم تقتصر على عامة الناس بل وصلت إلى رؤساء الدول والحكومات، وأصبح العالم منذ سنوات غارقًا فى موجات الجنس (بل أضحت ممارسته والإغراق فيه غاية الحياة وقمة الأمنيات لدى كثير من الناس)[١].

وانتقلت العدوى إلى العالم الإسلامى - وإن لم يبلغ بعد مرحلة التردى التى بلغها غيره من دول العالم - فرأينا بعض أصحاب الأقلام يتنافسون فى إصدار كتب الجنس وإغراء الشباب باسم الأدب والفن، وعمت البلوى بالصور العارية بالصحف والمجلات،وانتشر الغناء بما يحمله من ألفاظ فاحشة مكشوفة تهتك أستار الحياء وتدعو إلى الإثم، وتجتمع هذه الفواحش كلها فى أفلام السينما التى تحطم معنويات الشباب بدعوتها الصريحة للعنف والجريمة والجنس، وتكاد تحذو حذوها أو تنافسها أجهزة الإذاعة المرئية (التليفزيون)، حتى عمت البلوى وزادت الشكوى مما يعانيه الناس - لا سيما الشباب - من هذه الأخطار.

وارتفعت الأصوات المخلصة منذرة ومحذرة، وحسبنا فى هذا الصدد الإشارة إلى بعض التحذيرات الصادرة من المجتمعات التى تفشى فيها هذا الداء الوبيل، فها هو كنيدى يصرح عام ١٩٧٢م بأن مستقبل أمريكا فى خطر لأن شبابها مائع منحل غارق فى الشهوات، وأنه من بين كل سبعة شبان يتقدمون للتجنيد يوجد ستة غير صالحين، لأن الشهوات التى أغرقوا فيها أفسدت لياقتهم الطبية والنفسية)[٢].

---

(١) فتحى يكن: الإسلام والجنس ص١٠ ط مؤسسة الرسالة ٩٣ هـ ٩٢م.

(٢) فتحى يكن: الإسلام والجنس ص١٥.

ويلفت المؤرخ أرنولد توينبى النظر إلى أن سيطرة الجنس يمكن أن تؤدى إلى تدهور الحضارات[1].

ولكن، ما المخرج لشبابنا من هذا المستنقع الآسن الذى يجر إليه شباب العالم؟

ما من شك أن هناك و واجبات تقع على عاتق المسئولين فى الدول الإسلامية لحل مشاكل الشباب التى تنفذ إليه من أبواب الفتن، وعليهم تنقية وسائل النشر من صحافة وإذاعة وتليفزيون من الصورة العارية والأغنية المتهتكة والإثارات الجنسية الصارخة مع الاقتصار على إذاعة ونشر ما يفيد من برامج تثقيفية ولا بأس من الترفيه فى حدود الآداب الإسلامية والمحافظة على كيان الأسرة والمجتمع، وإن واقعنا وتاريخنا ملىء بالمواد الملهمة لأعمال أدبية وفنية ذات أهداف بناءة.

وإلى أن يتم ذلك كله فليس أمامنا من حديث نوجهه إلى الجيل الجديد، إلا تنفيذ توصيات الرسول ﷺ فى أن يغتنم الشباب شبابه فيما ينفعه وينفع أمته، فى إطار من تقوى الله تعالى ائتماراً وازدجاراً فيصرف وقته فى العمل وطلب العلم: فسواء كانوا من طلاب العلم أو العاملين فى الوظائف أو الأعمال التجارية، فإن لكلا الفئتين وقت فراغ، فعليهم بتكوين الجمعيات الثقافية والرياضية الهادفة، وليكن من أغراضها المساهمة فى تعليم الأميين والتطوع فى أعمال الخدمات العامة، والاستزادة من الدراسة فى بعض العلوم والعكوف على القراءة المنتظمة، وغير ذلك من ميادين النشاط التى تمتص طاقات الشباب فيما يعود عليه بالنفع[2].

ويوصى الرسول ﷺ الشبان بالزواج وفى حالة تعذره أو تعسره عليهم بالصوم ليخفف عنهم إلحاح العاطفة ويلطف فيهم فورة الشبيبة[3].

وينبغى فى هذا الصدد أن يتكاتف أولو الأمر لإيجاد حلول لمشكلات الزواج للتيسير على الشباب وهى مشكلات ناجمة عن تقاليد وعادات تخالف روح الإسلام وتعاليمه السمحة وتسهم فى دفع الشباب لسلوك السبل المعوجة[4].

---

(١) (نفس المصدر = ن. م) ص١٠، ٤٩.

(٢) أحمد محمد جمال: من أجل الشباب ص٦٠.

(٣) ن. م ص٤٨.

(٤) ينظر قرارات مجلس المنظمات والجمعيات الإسلامية فى الأردن لحل مشكلات الزواج (نشرت بمجلة البلاغ الكويتية العدد ٣٧٧ ذو القعدة ٩٦هـ - أكتوبر ٧٦م ص٦٠، ٦١.

ولا مناص من توجيه الشباب للابتعاد عن كل ما يثيره من الكتب أو المجلات أو الاستماع للأغانى أو مشاهدة الإذاعة المرئية ودور العرض السينمائى. وكفاه ما يعانيه من دواعى الفتن فى المجتمعات.

٤- انتشار البدع والانحرافات باسم الدين:

حفلت المجتمعات الإسلامية بمظاهر البدع الطارئة على عقيدة الإسلام، وأصبحت من الحجب التى تمنع رؤية الشباب للإسلام كما ورد فى الكتاب والسنة، إذ يلتبس على الشباب التفرقة بين ما يراه فاشيًا فى مجتمعاته، وبين الحقيقة الأصلية للخافية عليه، فإنه يرقب الموالد وما يدور فيها من منكرات باسم الدين، ولحظ أغلب الناس يلجأون إلى المقابر والأضرحة للاستغاثة وطلب العون وقضاء الحاجات، يلحظ كل هذا ويستنكره، وتستبد به الحيرة عندما يرى بعض العلماء لا يحركون ساكنًا إزاء الانحرافات والبدع بل يؤيدونها ويشاركون فيها مدافعين عنها.

وتقف هذه المظاهر سدًا حائلاً بين الشباب ومعرفة الإسلام، كما تصد المثقفين منهم خاصة عن الإقبال على الإسلام ظنًا منهم أن ما اعتادوا رؤيته فى بيئاتهم يتصل بكيان الإسلام العقدى والأخلاقى. ولا يتنبه الكثيرون إلى أن كل هذه الانحرافات لا صلة لها بالإسلام، بل جاء الإسلام لإبطالها لما تتمضمنه من عقائد الشرك والوثنية، وقد أدت بجماهير المسلمين إلى التشبه بالنصارى.

ويرى عالم يهودى معاصر (ونحن نستشهد به بحكم معرفته بأحوال قومه أيضًا) أن الإسلام علقت به من الخرافات أكثر مما علق بأدنى أشكال العبادة فى المذاهب الكاثوليكية والبيزنطية، على أن هذا لا صلة له بالإسلام نفسه (ولكنه راجع إلى حقيقة هى أن أفراد الطبقات الدنيا من عوام المسلمين هم نسبيًا أكثر عددًا وأشد تأخرًا وأقل تثقيفًا من جماهير العامة فى إيطاليا وأسبانيا مثلاً)[1].

فكيف يوفق الشباب المسلم بين هذه الازدواجية: أى الإسلام فى مصدريه:

---

(١) د. جورج سارطون: الثقافة الغربية فى رعاية الشرق الأوسط ص٣٤ منشورات مكتبة المعارف بيروت ٧٢/ ٩٢هـ.

القرآن الحكيم والسنة، وبين ما تقع عليه أعينهم من أنواع السلوك والتصرفات المنافية لعقيدة التوحيد؟

وربما تزداد الشُقة بين الشباب إذا ما حاول تطبيق ما تعلمه من الإسلام عقيدة وعبادة، أو أعلن اعتراضه على المخالفات التى تفشو بين الناس، عندئذ يقابل بنقد من بعض رجال العلم الدينى بحجة عدم التخصص فى علوم الإسلام أو صغر السن أو غير ذلك من حجج غير مقبولة، لا سيما أن كثيرًا من الدعاة مازالوا يستمدون معارفهم من المصادر والمؤلفات فى عصور المسلمين الأخيرة وهى المتسمة بالجمود والتعصب للمذاهب، ومن ثم يعجزون عن مخاطبة الشباب باللغة التى يفهمها، بعد أن تفتحت عقولهم عن معارف جديدة، وأقبلوا على تلقى الإسلام بفطرتهم بلا انحياز سابق لفرقة أو الانتماء لمذهب.

وليس على الدعاة إلا توجيه شباب المسلمين إلى الاتجاه السلفى النابع من الكتاب والسنة والذى صار على هديه الصحابة والتابعون ومن تبعهم، وتجدد ظهوره فى العصر الحديث على يد محمد بن عبد الوهاب فى الجزيرة العربية، ثم أخذ يشتد وينتشر فى باقى أنحاء العالم الإسلامى مع تسلح أصحابه بأدوات جديدة لشرح الإسلام ومواجهة ما طرأ على العالم من تغييرات، ومقابلة أسلحة الهجوم العدائية بما يفلها ويبطل مفعولها، مع طرح فلول البدع كلها جانبًا، سواء فى العقيدة أو العبادات، أو سلوك.

٥- الاختلافات بين المسلمين أنفسهم:

ونحن هنا أمام سبب آخر يبعث على البلبلة ويورث الحيرة أيضًا فى صفوف الأجيال وتطاحنًا فى داخل صفوف المسلمين أنفسهم، وربما كانت الاختلافات المذهبية الفقهية[١] هى أخفها وطأة، إذا تمكن الدعاة من شرح أسبابها ونشأتها، وأنها بسبب اختلاف العلماء فى الأحكام تبعًا لاحتمال معانى كثير من النصوص الشرعية واختلاف العقول فى فهمها.

---

(١) د. محمد أبوالفتح البيانونى: دراسات فى الاختلافات الفقهية ص٩٣. مكتبة الهدى - حلب ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م.

ولكن ينبغى التمييز بين اختلاف الفقهاء فى العصور الأولى بما أداه إليه اجتهاداتهم، وبين أقوال المتأخرين فى عصور الابتداع والتقليد.

ومع هذا فإن هذه المشكلة تعد أهون شأنًا من مظهر التنابذ والتطاحن الأخرى بين المسلمين فى البلد الواحد فتجد (صراعًا بين المذهبيين واللامذهبيين، وفى بلد ثان حربًا بين السلفيين والصوفية، وفى بلد آخر جدلاً بين الحنفيين وأهل الحديث.. إلى غير ذلك من الفرق والجماعات فى حين أن اللادينيين يحاربونهم، جميعًا، وإن تفاوتت درجة الحرب طبعًا)[1].

ولا يعصمنا من كل هذا إلا العض بالنواجذ من جديد على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، مع الاسترشاد بفهم السلف للأصول والفروع جميعًا.

ثانيًا: المخاطر الخارجية

تكاثفت العوامل الخارجية مع ما رأيناه من أسباب داخلية للوصول بنا إلى ما نحن عليه الآن. وربما يوصف عصرنا الحاضر أحيانًا بأنه صراع (الأيدولوجيات) لأن مذاهب الفكر الإنسانى - تؤيدها القوى العسكرية - تتصارع وتحاول كل منها أن تثبت جدارتها فيما تدعيه من تحقيق حياة أفضل للبشرية، ولكن الحقيقة أنها تخفى الرغبة فى السيطرة والتغلب على غيرها.

ومن جهة الإسلام، فقد أثبت القرآن الكريم هذا (التدافع) كسنة من سنن حياة المجتمعات البشرية فى قوله تعالى: ﴿ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج: ٤٠].

وفى قوله عز وجل: ﴿ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥١].

كما حذرنا الله سبحانه وتعالى فى آيات كثيرة من عداء اليهود والنصارى ومحاولاتهم الدائبة لاخراجنا عن ملتنا وإغرائنا بمتابعتهم، مثل ﴿ مَا يَوَدُّ الَّذِينَ

---

(١) د. يوسف القرضاوى، حتمية الحل الإسلامى ص٣٥٦.

كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم﴾ [البقرة: ١٠٥].

﴿ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم﴾ [البقرة: ١٠٥].

﴿وقالوا كونوا هودًا أو نصارى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفًا وما كان من المشركين﴾ [البقرة: ١٣٥].

﴿يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقًا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين﴾ [البقرة: ١٢٠]. وآيات أخرى أيضًا.

فلن يدهشنا إذن هذا الصراع واستمراره، ولكننا مطالبون بالتأهب واليقظة وأخذ العدة ما دمنا معرضين دئمًا للخطر الذى قد يصل إلى الرغبة فى إبادتنا وإزالتنا.

والكلمة الأخيرة استخدمها أحد جنود الغرب الاستعمارى، إذ ما يسترعى الانتباه بعمق فى تقارير لورانس السرية إلى المخابرات البريطانية، تأكيده الهستيرى المحموم والمخطط بإجرام ودهاء على ضرورة إزالة ما يسميه (خطر الإسلام)(١).

نحن لا نأمل إذن، والدعاة إلى الله كذلك، فى توقف الصراع بين الأصيل والدخيل لأنه سنة من سنن الله العليم الحكيم، يضرب فيها الحق والباطل: ﴿فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض﴾ [الرعد: ١٧].

بل على العكس، نريد أن يظل التمييز واضحًا بين الاتجاه الإسلامى المحافظ والتيارات الوافدة من الخارج - شرقية وغربية - كى يظل حيًا فى نفوس الأجيال الصاعدة والتالية وهى أمانة تلقاها جيلنا عمن قبله(٢).

ومن أهم واجبات الدعاة، المعاونة على نقل هذه الأمانة بعد المحافظة عليها وسط هذا الهجوم الذى أخذ شكل جديد.

---

(١) رهدى الفاتح: لورنس العرب، على خطى هرتزل (تقارير لورانس السرية)، دار النفائس - بيروت ١٣٩٠هـ - ١٩٧١م.

(٢) د. محمد حسين: الإسلام والحضارة الغربية ص١١٨.

وقد أصبح عنوان (الغزو الثقافى)[1] اصطلاحًا يطلق على الأساليب التى اتبعها العالم الأوروبى - بشقيه الشرقى والغربى - بهدف مسخ الشخصية الإسلامية من الداخل، وتشويه العقيدة، وإبعاد المسلمين عن الإسلام وصبغ حياتهم فرادى وجماعات بالصبغة الأجنبية أيًا كان لونها، ومن ثم يسهل القضاء على الذاتية المميزة لشخصية المسلم، دون حاجة إلى جيوش عسكرية مدججة بالسلاح فهناك جيوش أخرى تظهر فى ثوب الحمل الوديع، لجأ إليها الاستعمار لاستخدامها دون أن يظهر بمظهر الغازى الفاتح، أو المعتدى المغتصب ونعنى بذلك جماعات المستشرقين والمبشرين ودعاة التجديد والتغريب ومن سار على مناهجهم، فقد خططوا ونفذوا أساليب الغزو الثقافى بدقة وبراعة وها نحن نجنى ثمارها المرة.

ولكن، من دواعى اطمئنان الداعية أنه سيعثر على أعمال علمية كثيرة فى الفكر الإسلامى المعاصر عالجت موضوع الغزو الثقافى وكشفت النقاب عن طرقه وأهدافه، وتعد فى مجموعها سندًا له فى تشخيص بعض أمراض المسلمين فى وقتنا الحاضر.

وعليه بعد ذلك أن يستمر فى الخطوة التالية، أى دراسة أثر حملات الغزو فى

---

(١) الأساليب التى استخدمتها الحضارة الأوروبية بشقيها الرأسمالى والشيوعى - بالتعاون مع اليهود - لتبديل وتغيير المبادئ والقيم الثقافية والفكرية والاجتماعية والأخلاقية للمجتمعات الإسلامية ويحددها الأستاذ الدكتور محمد رشاد سالم فى الوسائل الآتية:

١- التنصير أو التبشير.

٢- إشاعة فكرة القومية.

٣- محاربة اللغة العربية.

٤- تغيير نظم التعليم.

٥- استخدام وسائل الإعلام من صحافة وغيرها.

٦- الحرب العلمية والفكرية عن طريق المستشرقين وغيرهم .

٧- إفساد الأخلاق وتغيير الحياة الاجتماعية.

٨- تبديل القوانين والتشريعات.

ص٢١، ٢٢ د. رشاد سالم: المدخل إلى الثقافة الإسلامية، دار القلم، الكويت وينظر أيضًا كتاب الأستاذ محمد محمود الصواف: المخططات الاستعمارية لمكافحة الإسلام ١٣٨٤هـ- ط. مكة المكرمة ١٩٦٥م.

ويُنظر كتابنا (الفكر الإسلامى فى مواجهة الغزو الثقافى فى العصر الحديث) دار الدعوة ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.

نفوس الأجيال الجديدة التى استيقظت على واقعها المرير بأبعاده كلها: الهزائم العسكرية، التأخر الحضارى، ضعف الهمم وانتكاس الأخلاق.

والسؤال الآن: كيف يعمل الداعية على إزالة آثار الغزو الثقافى والاستعمار الفكرى؟

إننا نرى إرشاد الشباب إلى الموضوعات التى ينبغى تثقيفه بها، ويتعين عليه تحصين نفسه بالتسلح بمعرفتها - سواء الاستزادة من المعرفة الشخصية فى الإسلام للتفقه فى الدين وإرشاد الناس وتوعيتهم أو لمواجهة حملات الإلحاد والتشكيك التى تغزوه فى عقر داره من خلال الكتب والصحف والمجلات والإذاعات المسموعة والمرئية، فإن غاية ما تهدف إليه الأبواق المعادية أن تهز ثقة الشباب المسلم بنفسه وتحطم معنوياته فيسهل عليها إضعاف إيمانه أى أغلى ما يملكه الشباب، وهو الأمل المرتجى لهذه الأمة، فإذا أفلت من مكائد الخصوم وحيلهم، فإن انتصارنا بمشيئة الله مؤكد، فإن علاج الحيرة والتشتت يتم بالمعرفة الصحيحة، وفتح باب الأمل يتم باستثارة الثقة فى النفس، ونور الحق يبدد ظلام الشك والإلحاد.

وتشكل هذه السبل علاجًا لآثار الغزو الثقافى تبدأ بتوضيح الإسلام كعقيدة ونظام إلهى بأسلوب جديد يضاهى الأساليب المعاصرة ويخاطب عقول الشباب بالأدلة ليثبت تفوق الإسلام على سائر الفلسفات والأنظمة البشرية لا سيما فى تفسير عالم الغيب وتقديم الإجابة عن الأسئلة التى تثار فى الأذهان عن خلق الإنسان والحكمة من خلقه ووجوده، لتحصين الشباب بدروع الاعتقاد والمعرفة الإسلامية الراسخة، وإلا فإنه قد يخضع لبعض المذاهب والاتجاهات الفلسفية والأعمال الأدبية الوافدة من الخارج وتحمل فى طياتها بذور الاستهتار بالقيم والمبادئ، ويخشى على الشباب المسلم من إيحاءاتها الضارة[1].

أ- بيان سمو الإسلام كعقيدة ونظام حياة:

ويتضح ذلك بأدنى نظر إذا استخدمنا المنهج المقارن بين الإسلام كعقيدة وتشريع إلهى، وبين النظريات السائدة على وجه الأرض اليوم فمنها المادية التى تنظر للعالم نظرة مادية وتضع الإنسان فى قائمة الحيوان والأحجار. وبغير التوسع فى شجب

---

(١) من تقرير الدكتور محمد خلف الله أحمد إلى مؤتمر المسلمين فى مارس ١٩٧٠ وهو يعدد أسباب الانحراف الفكرى عند الشباب.

الأصل الفلسفى للمادية إذ يكفى لبيان تهافتها فشل أشهر روادها فى العصر الحديث - وهو كارل ماركس - الذى ربط تفكيره الفلسفى بأوضاع القرن التاسع عشر الاقتصادية والاجتماعية، ولهذا فقد أخفقت النظرية فى أن تتجاوز لهذه الأوضاع، وعجزت عن علاج مشاكل القرن العشرين[١].

وإذا نظرنا إلى الوجه الآخر للحضارة العصرية[٢] فى غرب أوربا وأمريكا لاحظنا مع غيرنا أنه كلما زاد الرخاء المادى وبدا العلم متقدمًا محققًا المعجزات فى دولة ما، زاد فيها عدد الجرائم، وعلى سبيل المثال ففى إحصائية حديثة بالسويد ظهر أن ٣٥٪ من السكان يعانون من أمراض عصبية ونفسية، وأن ٣٠٪ من النفقات الطبية مخصصة لعلاج هذه الأمراض، وأن نسبة حالات الانتحار بين الشباب تزداد، ويعقب المراقبون على هذه الإحصائية بقولهم: إنها تدعو إلى الذهول لأن السويد تعتبر أغنى أربع دول فى العالم[٣].

ومنها الفلسفة العملية أو البراجماتزم التى تقيس الحقيقة بمدى النفع الذى يعود على الناس منها، فأعادت للأذهان الفلسفة السوفسطائية فى عهد قدماء اليونان.

ومنها الوجودية التى تجعل من الحياة الإنسانية عبثًا عقيمًا وقضية خاسرة فلا تهتدى بهدى الأخلاق المقررة أو أصول الآداب المتعارف عليها، فتغرس فى الإنسان اليأس والتشاؤم، وليس ثمة عدو أقسى للنفس الإنسانية من اليأس[٤].

ب- استثارة الثقة فى النفس:

إن الاستقراء التاريخى يوضح لنا أن الصلة وثيقة بين حضارتنا والإسلام، ويظهر ذلك بصفة خاصة فى مناسبات تاريخية ثلاثة، هى حروب المغول والغزو الصليبى والاستعمار الصهيونى الاستيطانى الحالى، فعندما نسى المسلمون ما لاجله غادروا جزيرتهم - أى إخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده -

---

(١) ينظر (الإسلام والمذاهب الفكرية) بالقسم الثانى من هذا الكتاب د. البهى : تهافت الفكر المادى ص ٣٤، ٣٥. وقد تهاوت الآن الماركسية فلسفيًا واقتصاديًا وسياسيًا) فصدقت التنبؤات السابقة عن مصيرها.

(٢) ينظر كتابنا (حضارة العصر)، الوجه الآخر - دار الدعوة ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٠م.

(٣) فتحى رضوان: الإسلام ومشكلات الفكر ص ١١٢.

(٤) العقاد: أفيون الشعوب، المذاهب الهدامة ص ١٠٣، ١٠٤ دار الاعتصام ١٩٧٥م.

وأفسدوا فى الأرض بعـد إصلاحها - بعث الله عليهم عـبادًا له أولى بأس شديد، أى سلط عليهم الصليبيين والتتار.

ويتضح لمن يطلع على أحـداث التاريخ، ومشاهدات هذا العصـر - وما حرب فلسطين منا ببـعيد - يتضـح له أن المد والجزر فى تاريخ الإسلام تابعـان لمدى قوة الإيمان وضعفه[1].

ومـا يلاحظ من ضعف المسلـمين الحـالى وتأخرهـم فإنه يرجع إليـهم لا إلى الإسلام.

هذا فيما يتصل بتحقيق التقدم والقوة للمسلمين. أما الجانب الثانى الذى يتضح لنا من السـياق التـاريخى لحضـارتنا الإسلاميـة، فإنه يظـهر فى النهـضة العلمـية والعمـرانية، فإذا قـارنا الإسلام بمختلفـة ديانات العالم، عرفنا أن عـقائدها منعت معتنقيها من التقدم الحضارى عندما استمسكوا بها. ودون الغض من أية ديانة، فإن دارس التاريخ يلاحظ أن أهل أوربا والبوذيين فى اليابان على سبيل المثال، لما كانوا راسخين فى معتقداتهم الـدينية، كانوا على أسوأ ما يكونون من أدوار التخلف ولما أحرزوا لأنفـسهم الرقى والتقـدم فى حياتهم العلميـة والعقلية والمادية، مـا عادوا مؤمنين بمعتقداتهم المسيحية والبوذية إلا اسمًا[٢].

أما المسلـمون، فعندمـا كانوا أقـوياء فى إيمانهم بمعـتقـداتهم صاروا أكـثر أمم الأرض تقدمًـا وازدهارًا وقوة ومجـدًا، وما أن دب دبيب الضعف فى إيمـانهم بها حتى تخلفـوا فى ميـادين العلم وضعفـوا فى صراعهم للرقى الـدنيوى، وتحكمت فيهم واستولت عليهم أمم أجنبية.

وهذا فـرق عظيم بين مـعتـقدات الإسـلام ومعـتـقدات الديانات الأخـرى فى العالم[٣].

جـ- مواجهة تيارات الإلحاد والتشكيك:

يقابل الدعاة كثير من الأفكار التى تراود بعض الشباب بتأثير أفكار مضللة باسم

(١) أبو الحسن الندوى: المد والجذر فى تاريخ المسلمين ص ١٤ .

(٢، ٣) المودودى : الحضارة الإسلامية، أسسها ومبادؤها ص ٩٧، ٩٨ .

الفكر الفلسفى أو النظر العلمى، فتوقع فى نفوسهم وساوس التشكيك بواسطة دعاة الإلحاد وغيرهم.

ومثل هذه الشكوك لا تلبث أن تزول إذا ما جوبهت بما يدحضها باتخاذ أساليب الحوار العقلى وتقديم البراهين، فالإسلام يزدهر (وبراهينه تتألق من الحوار العقلى الحر.. ولن يهزم الإسلام أبدا فى مناقشة حره)[1].

ومن واجب الدعاة إزاء تخرصات مدعى لعلم، توجيه الشباب إلى الموقف العلمى الحديث، بعد ظهور الاكتشافات العلمية، والتقدم المذهل فى مجال العلوم المتعددة، فبعد أن كان العلم يدعى معرفة الحقيقة الكلية، أصبح الآن متواضعًا يعرف قدر نفسه، فإنه يعنى فى كشف العلاقات العلمية الثابتة بين الظواهر بعضها والبعض الآخر، منصرفًا عن التفسير والتحليل لأنه فوق طاقته[2].

وأعلن كثير من علماء الحاضر - كل فى مجال بحثه - أن جهودهم العلمية عززت الإيمان فى نفوسهم، فوقفوا مبهورين أمام قدرة الخالق جل شأنه وبدائع صنعه من دقيقها وصغيرها كالديدان والحشرات إلى أكبرها وأعظمها كالكواكب السيارة من الشمس والقمر والأفلاك السابحة فى الفضاء.

وعلى العكس فإن المنكر فى القرن العشرين لا يستطيع أن يستند إلى أسباب من العلم يسلمها المفكرون[3].

وكل ما نريده الآن هو إقامة علم توحيد أساسه طريقة العلم الحديث وتقنياته بدلا من علم الكلام الموروث عن الفرق الإسلامية التى عالجت مشاكل لم تعد موجودة فى هذا الزمن، وفى مؤلفات العلماء المسلمين المعاصرين معين كبير للإسهام فى هذا العمل، ولا بأس من استخدام بعض كتب العلماء من غير المسلمين الذين استخدموا أبحاثهم العلمية لتثبيت الإيمان بالله فى النفوس[4] ويا

---

(١) د. عبد المنعم خفاجى: ص ٨٣ حوار مع الشيوعين فى السجن.

(٢) العقاد: عقائد المفكرين فى القرن العشرين ص ٣٥.

(٣) نفسه.

(٤) من أمثال: د. محمد أحمد الغمراوى د. الفندى ووحيد الدين خان، ونعنى من مؤلفات غير المسلمين (الإنسان ذلك المجهول - كارليل، الكون الغامض، العلم يدعو للإيمان ...وغيرها)

حبذا لو ساهم الدعـاة من ذوى التخصص فى العلوم التجريبيـة والعملية بمؤلفاتهم وكذلك الحال فى مواجهة الآراء الفلسفية.

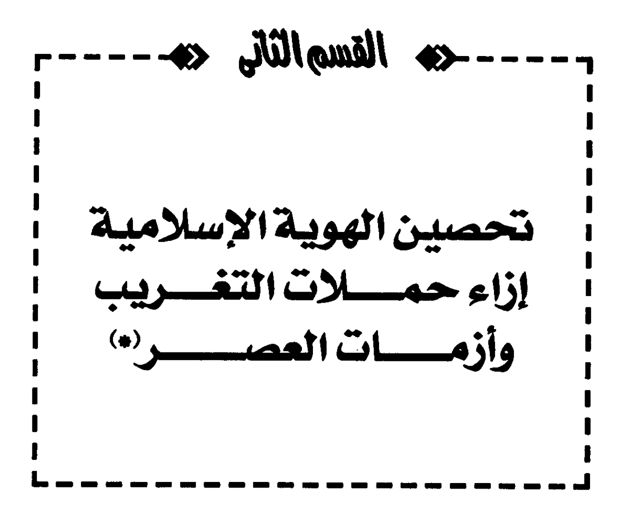
فإذا كانت الفلسفة السائدة الآن فى العالم بتصوراتها عن الوجود والحياة ما هى إلا تخيلات لأصحابها بلا حجـة أو دليل، فقد أصبح من الضرورى تقديم البديل بإظهار الحقائق الإسلامية فى مـسائل الألوهية والخلق والبعث وسائر عالمَ الغيب، بالإضافة إلى الحديث عن الإنسان ومكانته فى الوجود ودوره وقيمه.

ولا شك أن الداعية سيعثر عـلى درر ثمينة لو غاص فى أعماق الكتاب الكريم وعـاش مع السنة النبـوية، ونوصى فى هذا الصـدد باتباع المنهج المـقارن، فـبعـد استخلاص الحقائـق المستمدة من مصادرها، يمكن مقارنتها بتـصورات الفلاسفة أو الأفكار الدينية الأخرى، وبذلك يظهـر سمو العقيدة الإسلاميـة على سائر العقائد وألوان الفكر الفلسفى.

وهذا ما سيتضمنه القسم الثانى من الكتاب[١].

*****

(١) وفى هذه الطبعة الثانية استـبدلنا بهذا القسم دراسة عن (تحقيق الهوية الإسلامية) للصـمود أمام التغييرات الطارئة، والتى نعايشها الآن كأحداث تتطلب اليقضة والثبات.



(١) هذا البحث نقل من كتابنا (أضواء على ثقافة المسلم المعاصر) دار الدعوة ١٤١٩هـ / ١٩٩٩م وقد أضفناه هنا لاستكمل اقترحاتنا بكيفية تحصين الشباب المسلم فى مواجهة المخاطر لاسيما فى ظل (العولمة).

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبى بعده، وبعد:

فإن هذا البحث ليس محاولة لإعطاء فكرة كاملة عن (ثقافة المسلم المعاصر) فحسب، وإنما يسعى لتحقيق بعض أهم الأهداف المتصلة بالموضوع وهى :

أولاً: تحقيق الذات فى مشروع النهضة الإسلامية المعاصرة:

ويتطلب ذلك توجيه العناية إلى الأولويات فى مشروع النهضة الإسلامية المعاصرة مع مجابهة التحديات التى تحاصر الأمة الإسلامية، وذلك عن اقتناع بالرأى القائل بأن «جوهر التحديث هو تحقيق الذات بالمعنى الحضارى ... ويتحقق بتوظيف طاقة الإيمان والانتماء الحضارى، وإيقاظ القوى الموحدة فى النسيج الاجتماعى الحضارى للمجتمع»[1] - بل للأمة أيضًا - ، فإن العالم الإسلامى لا يشعر بوحدته إلا بالإسلام. يؤيد ذلك التجربة التاريخية الواقعية التى تشع بالدليل أمام دارسى الحضارات إذ قامت الحضارة الإسلامية فى رقعة موزعة: حدها الشمالى مدينة الرها، والجنوبى سوريا وفلسطين، وتحُد من الشرق بالمنطقة التى سيطرت عليها المزدكية... وفى أقصى الجنوب تحد بتلك البيئة التى ستكون مهد الإسلام، وأخيرًا فى أقصى الشمال تقع مدينة بيزنطة... «هذا العالم المختلط المشتت المتشعب الأطراف لم يستطع أن يشعر بوحدته إلا على يد الإسلام»[2].

وفى ضوء هذه الحقيقة، ينبغى على المسلم المعاصر أن يوقن بإمكان ازدهار حضارته من جديد بالرغم من أحوال الأمة السيئة.

يقول الكاتب السويسرى المهتدى للإسلام (روجيه باسكويه). «أظهر العالم الإسلامى جمودًا باعثًا على الأسى فى مقابل المد الأوروبى فى كل المجالات، ولكن مهما أصبحت (الشعوب الإسلامية) خاملة ناعسة، فإنها بقيت مخلصة

---

(١) مقال (التكنولوجيا والتنمية من منظور حضارى بقلم د. حامد إبراهيم الموصلى ص١٥١ بمجلة - منبر الشرق - الصادرة عن المركز العربى الإسلامى للدراسات بالقاهرة ربيع أول ١٤١٤ هـ / سبتمبر ١٩٩٣م.

(٢) أشبنجلر، د. عبد الرحمن بدوى ص ١١٩ مكتبة النهضة بالقاهرة ١٩٤٥ م.

للإسلام.. فقدت بكل تأكيد كل مفاتيح القوة الدنيوية، ولكن احتفظت بمفاتيح السماء»[1] ويعلل ذلك بأن الثقافة الإسلامية تمتاز عن غيرها من الثقافات بأنها نبعت مباشرة من التنزيل «أى من الحقيقة الخالدة السامية، وليس من تأملات أو اجتهادات الفلاسفة والمفكرين»[2].

ثانيًا: تحصين الهوية الإسلامية إزاء حملات التغريب وأزمات العصر:

يطول الحديث عن حملات التغريب- أو الغزو الفكرى - ولكننا نلخصه من حيث آثاره فى الإنسان من جهتين:

١ - ما يطلق عليه (غسيل المخ):

وهو حسب تعريف الدكتور زكى نجيب محمود أن:

«يتحكم من أراد أن يتحكم فى تفريغ مخ الإنسان من محتواه.. لتعبئته بمحتوى آخر وفى تشكيل سلوكه بعبارات جديدة غير عاداته السابقة»[3]، وكان يحدث ذلك لأسرى الحرب وهو ما يحدث شىء منه بطريق الدعاية ووسائل الإعلام.

٢ - شحن الإنسان بالشحنة الفكرية والسلوكية:

وما نقصده بالعصر: الحضارة التى تسوده - فإنه عصر متغرب، كذلك ما يتعاقب فيه من وقائع وأحداث سلمًا وحربًا، وما تنتجه قرائح علمائه وفلاسفته من مذاهب ونظريات فى ميادين السياسة والاجتماع والاقتصاد والتربية والأخلاق والآداب والفنون وما تظهر فيه الاكتشافات المتوالية فى مجالات الطب والزراعة والصناعات وعلوم الفضاء، وكذلك آثار علاقات الدول ومنافساتها وحروبها، وما أصاب الأمة الإسلامية من محن وكوارث وأزمات، وتداعيات. ذلك كله على المسلم المعاصر، فإن «الأزمة التى تأخذ بخناق العالم الإسلامى والعربى بجوانبها

---

(١) إظهار الإسلام، روجيه دوباسكويه ص ١٥٢، ١٥٣ دار الشروق بالقاهرة ١٩٩٤م.

(٢) نفسه ص ١٣٤.

(٣) (عن الحرية أتحدث) د. زكى نجيب محمود - دار الشروق - ١٩٨٦م..

السياسية والاقتصادية والثقافية والفكرية والاجتماعية جعلت الناس أكثر اتجاهًا لدينهم يستلهمونه الحلول»[1].

وفى ظل التقدم المتواصل فى وسائل الاتصال اليوم، أصبحت اليد الطولى فى عصرنا للأعلى صوتًا، لا للأقوى حجة، بفعل أجهزة الإعلام الجبَّارة التى لم يعرف لها العالم مثيلاً من قبل، وأصبح فى قدرة من يملكها فرض ثقافته على الآخرين فى ظل ما يسمى (بالعولمة). ويصف الكاتب الفرنسى لاتوش ما يسميه (بالعولمة المباشرة) بأنها تتجاوز (النزعة القومية)، ويصفها بأنها (تشكل التدفقات الإعلامية بواسطة الأقمار الصناعية للاتصالات البعيدة وتقنية معالجة المعلومات بالكمبيوتر تشكل رغبات وحاجات وأشكال سلوك وعقليات ونظم تعليم وأنماط حياة المتقبلين، وينتج عنها - وهذا ما يعنينا هنا ببحثنا - «فقدان الهوية الثقافية المؤكد، كما يسهم فى زعزعة الهوية القومية سياسيًا واقتصاديًا، وحتى ما يتبقى من الإبداعية القومية، يجد نفسه فى حالة تبعية إزاء ثقافة أجنبية».

ويأتى وصف جاك إلول لهذا الواقع أكثر صراحة وصدقًا: فيقول: «بفضل أروع وسائل النشر الممكنة، يجرى اليوم نشر ثقافة يمكن القول عنها فى أفضل الأحوال إنها غياب للثقافة، وتم إنتاجها عشوائيًا»[2]. ويؤكد ذلك أيضًا الدكتور مراد هوفمان: «فقد ربح الغرب سباق الإعلام من زمان، ليعرض أفكاره على المسلمين بالجملة، ويتحكم فى حياتهم كالطاعون»[3].

وهل نشك بعد هذا التحليل الواقعى الصريح الذى نلمس آثاره ليل نهار، هل نشك بأن الغزو الثقافى هو فعلاً - كما وصفه د. حامد ربيع - حرب فكرية؟

ولكن: ماذا أعددنا لها؟ وماذا فعلنا لكى نجعل المسلم المعاصر يصمد فى هذه الحرب؟ يقول الدكتور حامد ربيع: «وككل صراع، فإن المقاومة تفترض من جانب التقوية الذاتية لأنه طالما أن الجسد المصارع ضعيف، فإن أى صدمة من الخارج قادرة

(١) من مقدمة كتاب (فكر المسلم المعاصر، ما الذى يشغله؟) ج ١ - مطابع الأهرام بالقاهرة ١٩٩٢م.

(٢) تغريب العالم سيرج لاتوش، ترجمة خليل طلعت، دار العالم الثالث بالتعاون مع البعثة الفرنسية للأبحاث قسم الترجمة بالقاهرة ١٩٨٣م.

(٣) الإسلام عام ٢٠٠٠.

على أن تنال منه، ومن جانب آخر، علينا أن نتذكر أن خير وسيلة للدفاع هى البدء بالهجوم»[1].

إن أول أسلحة الصمود - أو الذاتية - بناء على الآيات والأحاديث التى تكاد تفوق الحصر - هى الاستمساك بكتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ.

أخرج مسلم عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ كان يقول فى خطبته: «أما بعد فإن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدى هدى محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة»[2].

ونعود إلى اقتراح الدكتور حامد ربيع (خير وسيلة للدفاع هى البدء بالهجوم) فإنه لا يقصد الهجوم العسكرى فى ساحات القتال قطعًا، ولكنه - فى هذا المجال الثقافى - تأكيد الثقة فى النفس حتى تتحول من حالة (القابلية للاستعمار) التى حذّر منها الأستاذ مالك بن نبى، إلى حالة إيجابية - وكأنها تأخذ المبادرة بالهجوم، وذلكم بمعرفة أوجه النقص فى هذه الحضارة وأزماتها - هذا هو السلاح الأول.

أما السلاح الثانى فإنه بمقدورنا - لو فهمنا تراثنا حق الفهم - أن نؤدى دورنا كما يرى د. زكى نجيب محمود - فى بناء الحضارة المعاصرة:

١ - وأول الأسلحة الهجومية فى تلك المعركة الثقافية هى معرفة الوجه الآخر للحضارة المعاصرة، أى الأزمات الخانقة التى تعانيها بشهادة علمائها وفلاسفتها الحريصين على بقائها، فقد جمعت د. أدريين كوخ - أستاذة التاريخ بجامعة كاليفورنيا آراء بعضهم فى كتابها بعنوان (آراء فلسفية فى أزمة العصر)، وسجلت انزعاجها الشديد بالمقدمة، فكتبت (هذا القرن الفظيع: من ذا الذى يتدبر مسيره وتاريخه ولا يحكم عليه بالفظاعة؟! ومن ذا الذى ينكر أن الثقة التى كانت تملأ نفوسًا عن مطلعه قد زالت من النفوس؟)، ثم تستطرد فى كلام طويل منتهية إلى

---

(١) الثقافة العربية بين الغزو الصهيونى وإدارة التكامل القومى، د. حامد ربيع ص ٣٢ دار الموقف العربى القاهرة ١٩٨٣م.

(٢) نقلاً عن الاعتصام للإمام الشاطبى ج ١ ص ٦٨ تحقيق الشيخ رشيد رضا - دار المعرفة ببيروت ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨م.

وصف الأمة بأنها أعمق وأوسع انتشاراً من أية أزمة أخرى عرفها تاريخ الإنسان، لأنها أزمة الوجود البشرى ذاته»[1].

وقد أجاد هايدجر - عميد فلاسفة القرن العشرين - فى وصف حال هذا العصر «بأنه عصر يبدو كقصر شامخ فى منظر كئيب. سادته يعانون من الأرق والملل والقلق، وخدامه يقاسون من المرض والجهل والجوع»[2].

٢ - دورنا فى الإسهام فى بناء حضارة:

قبل الحديث عن الإسهام فى حضارة العصر، سنمهد بكلمة عن العصر وعلاقتنا به عند الدكتور زكى نجيب محمود. إذ يرى أن (العصر) ليس شيئًا محددًا، وإنما هو خضم من الأحداث والكائنات. وإذا ما تساءلنا: ما هى ثقافة العصر التى نواجهها أو لا نواجهها؟

بإجابته على السؤال يضرب مثالاً لحدث ضخم كإطلاق الصواريخ التى تغزو الفضاء، ولكن الضجة التى يُحدثها تكاد لا تكون جزءًا من ثقافة عصرنا نحن، ثم يستطرد قائلاً: «لكن قارن ذلك بحدث آخر، هو إقحام إسرائيل على أرضنا، وانظر بأى معنى وإلى أى مدى قد دخل هذا الجانب من الاستعمار الذى هو من علاقات العصر فى دنيانا الثقافية، بحيث لم يعد منا واحد يستطيع أن يغضّ عنه النظر»[3].

وبعد هذا التمهيد، حدد نقطة البداية بين العالم العربى الحديث وحضارة العصر، «بمجىء هذه الحضارة غازية غالبة متسلّطة»[4].

وتحت عنوان (موقف العرب من المذاهب الفلسفية المعاصرة) يطوف بنا فيلسوفنا الأديب باتجاهات الفلسفة ليسوقنا إلى نتيجتين هما «أن الفكر وعمليات التغيير وجهان لشىء واحد»[5]:

---

(١) (آراء فلسفية فى أزمة العصر) ادريين كوخ ص ١٥ ترجمة محمود محمود مكتبة الأنجلو المصرية سبتمبر ١٩٦٣م.

(٢) ص ٥٥ بكتاب (د. رشدى فكار فى حوار متواصل حول: مشاكل العصر) إعداد خميس البكرى مكتبة وهبة ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٦م.

(٣ : ٥) ثقافتنا فى مواجهة العصر د. زكى نجيب محمود.

«وهو الدرس الذى نتعلمه من مذاهب الفلسفة المعاصرة جميعًا، وذلك وحده جواز المرور الذى لا يمكنك الدخول فى أجواء هذا العصر إلا به»[1].

ويقرر فى نهاية البحث أن هذا الذى يتطلبه منا العصر هو نفسه الذى ورثناه من مبادئ تراثنا الفكرى «إن القرآن الكريم كلما وجه الخطاب إلى ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أضاف إلى ذلك قوله ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ كأن الإيمان لا يكون إيمانًا كاملاً إلا إذا اقترن بالعمل الصالح»[2].

لذلك يشترط لكى تجدى المبادئ، أن تربط القول بالعمل، وعندئذ «ننخرط فى تيار عصرنا، وفى الوقت نفسه نلتزم ميراثًا كريمًا ورثناه»[3].

أما عن سلبيات العصر ومساوئه، فإنه «بشهادة رجال الفكر أجمعين - عصر أدى بشبابه إلى حالة من التمزق والتفسخ والضياع»[4].

فما هو دورنا إزاء أزمة العصر؟

يقرر الدكتور زكى نجيب محمود أولاً أن أهم ما يميز عقيدة المسلم هى عقيدة التوحيد التى ينبنى عليها ما يسميه (البناء المتسق) فى القيم فيضمن للإنسان ألا يتمزق سلوكه وأن ننقذ أنفسنا من نقائض عصرنا، ثم يمضى قائلاً «فلو استطعنا نحن أن نقدم للعالم مجموعة متسقة الأجزاء من القيم الهادية للإنسان على طريق الحياة، كان هذا دورنا فى بناء الحضارة المعاصرة»[5].

وعندما استمع فى اجتماع رسمى لقول مسئول كبير «علينا تحفيظ شبابنا القرآن الكريم ليقوموا تلك الحضارة» عارضه مصححًا رأيه، فالأصوب «أن يقول إن علينا أن نزيد من تحفيظ شبابنا القرآن ليستطيعوا المشاركة فى حضارة عصرهم»[6].

ثالثًا: ضرورة ثبات المسلم المعاصر على عقائده ومبادئه:

إن المسلم المعاصر لا يختلف عن المسلم طوال العصور، أى منذ عصر النبى

(١ : ٣) ثقافتنا فى مواجهة العصر د. زكى نجيب محمود.

(٤ ، ٥) ثقافتنا فى مواجهة العصر د. زكى نجيب محمود.

(٦) عن الحرية أتحدث أيضًا ص ٨٧ دار الشروق ١٩٨٦م.

ﷺ، إذ إنه يتسلح بالعقيدة الإيمانية والقيم الخلقية، ويظل مستمسكًا بالكتاب والسنة ويتزوَّد بالمعرفة والعلوم النافعة لعمارة الأرض، ويمضى فى حياته الدنيوية قدمًا بين أمر يأتمر به ونهى ينتهى عنه، وقَدَر يصبر عليه ملتزمًا بشريعة ربه عز وجل، آملاً فى رضوانه وجنته فى الآخرة.

وعندما نتكلم عن المسلم المعاصر، لا نغفل هذه الحقيقة، حتى لا يظن الظان أن هذا العصر يعطى صفة أخرى للمسلم لم تكن لغيره فيما سبق من عصور، أو تدفعه ليجعل الهيمنة لمذاهب العصر فيخضع لها على حساب دينه «كأن يحلل حرامًا أو يحرم حلالاً تحت شعار العصرية».

تقول الكاتبة الأمريكية المسلمة (مريم جميلة):

«إن البلاد المسلمة قد وقعت فريسة مصطلحات خاطئة، ومنها مصطلح (العصرية) وقد جنى هذا المصطلح على الإسلام جناية كبرى»[1].

وقد لا حظنا من دراسة بعض آراء المهتدين للإسلام من الغربيين - أمثال محمد أسد ومريم جميلة ومراد هوفمان - تحذيرنا الشديد من اللهث وراء الأفكار الوافدة بحجة ملاحقة العصر بعد أن عرفوها قبلنا.

وها هو د. مراد هوفمان يضع النقاط على الحروف، ويفصل ما أجملته مريم جميلة، يقول د. مراد هوفمان:

«ومن البديهى بعد ذلك أن يكون المخطط الإسلامى لفلسفة الحياة والذى يفرض نفسه بديلاً، قادمًا من بيئة مخالفة، مواجهة حقيقة تصدم الفلسفة العصرية الغربية، وجهلها بالقيم، وإباحيتها المطلقة لكل شىء حسب التعبير الأمريكى «لا شىء ممنوع» هذه المدنية العصرية الغربية تصطدم بالمخطط الإسلامى المضاد الجاد، الذى يراه البعض عتيقًا باليًا، لا لشىء سوى قيام صرحه واستثماره، غير مرتبط بعنصر الزمان، بمعنى صلاحيته لكل العصور»[2].

(١) نقلاً عن كتاب (مشكلات الفكر المعاصر فى ضوء الإسلام) أنور الجندى ص ١١٣ مجمع البحوث الإسلامية بالقاهرة ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢م.

(٢) الإسلام كبديل ص ٢٠٦ ترجمة د. غريب محمد غريب، مجلة النور الكويتية ومؤسسة بافاريا شوال ١٤١٣ هـ - أبريل ١٩٩٣م.

وكان الدكتور زكى نجيب محمود حريصًا أيضًا على الاستمساك بالثوابت، كالعقيدة واللغة والقيم الأخلاقية، فإنه فى تحليله لمواقف الأمة من الأفكار الأساسية التى صنعت مناخ الحياة فى أوربا وأمريكا، لاحظ أن هناك فئة رافضة لتلك الأفكار. وأخرى تتلقى تلك الأفكار وكأنها وحى من السماء، ثم يصوب موقف الفئة الثالثة وهى التى تهتدى بفطرتها إلى جادة الطريق، فتتلقى أفكار العصر لتعجنها عجنًا مع أصولنا التى أسميناها فيما أسلفنا بالثوابت، كالعقيدة، واللغة، والقيم الأخلاقية التى تفرض على حاملها ألا يضحى بإنسانية الإنسان لأى سبب من الأسباب»[1].

كذلك على المسلم المعاصر ألا يهتز أمام حملات التشكيك فى أنظمة الإسلام وتشريعاته بالموازنة بنظم أوربا.

ولا تأتى هذه التوصية على لسان أحد مسلمى الشرق، بل على لسان مسلم غربى تشبع بثقافة أوربا وعاش فى ظل أنظمتها (ولا يُنبئك مثل خبير).

يقول د. هوفمان: «يجب ألا يتلجلج المسلمون أمام مسائل مثل الديمقراطية، الجمهورية، فصل السلطات، فعليهم أن يؤكدوا لمن يتحداهم عدم وجود ما يخالف الإسلام أو يعاديه فى ذلك»[2].

يستخلص إذن من الآراء السابقة أنه بوسع المسلم المعاصر الحياة فى ظل حضارة مغايرة لحضارته، دون التضحية بهويته وثقافته الإسلامية.

وقد تحققت أفضل الأمثلة فى العصر الحديث بواسطة المسلمين الذين ابتلوا بحكم الاتحاد السوفيتى، وخضعوا لأشد أنواع (غسيل المخ)، إذ تتضاءل بجوارها آثار التعليم العلمانى الذى طبقته دول الاستعمار الغربى أمثال انجلترا وفرنسا وإيطاليا وهولندا وغيرها من مستعمراتها وفرضته على المسلمين فرضًا.

ويتطلب شرح هذه التجربة للإفادة منها وضمان استمراريتها، أن نعرض بإيجاز لموضوع (الثقافة والحضارة) ومدى التمايز بينهما:

---

(١) (عن الحرية أتحدث) د. زكى نجيب محمود ص ٣٢١ دار الشروق ١٩٨٦م.

(٢) ص ٦٠ من كتاب (الإسلام عام ٢٠٠٠) د مراد هوفمان ترجمة عادل المعلم مكتبة الشروق نوفمبر ١٩٩٥م.

الثقافة والحضارة:

ولكى نتجنب الاستغراق فى التعريفات النظرية بين الثـقافة والحضارة، والتمييز بينهـما، نفـضل اخـتيـار دراسة الرئيـس على عزت بيـجوفيـتش لأنه لم يكتف بالتعريفات، بل تتبع الجذور التاريخـية وشرح المفردات اللغوية، فدلّنا على السلوك العلمى الذى اجتـاز طريقه هو نفسـه، لأنه عانى واقعـيًا بشدة بسـبب استمسـاكه بثقافته الإسلامية أمام جيوش الإلحاد، فكيف استطاع الحياة فى ظل حضارة مضادة لثقافته؟

وقد قـدم بحثه المبـتكر - دون أن يدرى - لمسلمى العصـر لحثهم على الصـبر والمثابرة مـهما اشتدت المحـن، فمهما كـانت المحن، فإن الإسلام أخذ اسـمه من قوانينه ونظامه ومحرماته ومـجاهدة النفس والبدن التى يطالب الإنسان بها، وأيضًا من قوة النفس فى مواجهة محن الزمان»[1].

فمن رأيه أن الثقافـة وثيقة الصلة بالدين، وتبدأ بالتمهـيد السماوى، ولابد فى الدين من عبادة، وهى لصيقة بالروح - أى الإنسان من الداخل.

أما الحضارة فتتصل بالأدوات وتطورها، وهو تطور خارجى كمى.

وبتحليله اللغوى للفظين يذكر أن كلمة ثقافة (Culture) تتصل من ناحية الأصل اللغوى بكلمة (Cult) أى: عبادة، وهى باللاتينية (Cultus)، وهما ذو أصل مشترك من الكلمة الهندأوربية (Kwel).

أما كلمة حضارة (Civilization) فمتصلة بكلمة وطن (Civis) أو موطن.

وبعد هذه التـعريفـات يشرح الرئيس على عـزت بيجوفـيتش آثارها على حـياة الإنسان بنوعـيها - حسب تعـبيره - البرانية والجـوانية، ليصل إلى بيـان الاختلاف البيِّن بين حضارة العصر وحكمة الإسلام، لأن الحضارة بشعار «انتج لتربح، واربح لتبدد» تغرى بالحياة البـرَّانية على حساب الحياة الجوانية. أما الثقافة (وفـقًا لطبيعتها الدينية) فتميل إلى التقليل من احتياجات الإنسان، أو الحد من درجة إشباعها.

---

(١) الإسلام بين الشرق والغـرب ص ٢٩٦ (الرئيس على عزت بيجوفـيتش. ترجمة محـمد يوسف عدس، مؤسسة بافاريا ومجلة النور الكويتية رجب ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤م.

ثم يميز بين الحضارة المعاصرة التى ترفع شعار «أطلق رغبات جديدة دائمًا وأبدًا»، وحكمة الإسلام فى «كبح الرغبات»[1].

لذلك استطاع الرئيس على عزت بيجوفيتش ممارسة حياته فى ظل مناخ إلحادى ولم يهتز، بل ظل مستمسكًا بثقافته الإسلامية، فكانت كسفينة النجاة فى بحر الإلحاد المتلاطم، وكان كالرُّبان الماهر الماسك بشراعه بقوة، مكافحًا تلاطُم الأمواج ومقاومًا شدة الرياح.

وبالرغم من آرائه النقدية العنيفة لهذه الحضارة فلسفيًا وعلميًا ودينيًا بكتابه الجامع (الإسلام بين الشرق والغرب) فإنه لم يرفضها، وطالب فقط بتحطيم الأسطورة التى تحيط بها.

«هذا النقد للحضارة ليس دعوة لرفضها، فالحضارة لا يمكن رفضها حتى لو رغبنا فى ذلك، إنما الشىء الوحيد الضرورى والممكن هو أن نحطم الأسطورة التى تحيط بها، فإن تحطيم هذه الأسطورة سيؤدى إلى مزيد من أنسنة هذا العالم، وهى مهمة تنتمى بطبيعتها إلى الثقافة»[2].

رابعاً: التعلّم الذاتى للمسلم المعاصر:

إن أول سؤال يطرأ على الذهن حول الحديث عن واجب المسلم المعاصر فى التعلّم الذاتى هو:

هل يصح له الإطلاع المباشر على أصول الإسلام - الكتاب والسنة - ثم كتب الفقه والحديث ليتزود بالعلوم الشرعية ويستنتج الأحكام الفهقية، أم أن الأمر قاصر على العلماء المتخصصين؟

كانت المسألة محل نقاش بين العلماء، فرأى البعض أنه من (اختصاص الجماعة التشريعية فى الأمة المكونة من العدول ذوى البصيرة النافذة بأحكام الشريعة ومصالح الدنيا) لذلك فلا يصح لغيرهم استنباط الأحكام من مصادر الإسلام.

(١) الإسلام بين الشرق والغرب ص ٥٦ - ٩٤.
(٢) الإسلام بين الشرق والغرب ص ١٣٣.

ولكن الدكتور محمد عبدالله دراز يوسع دائرة الإباحة باعتبار أن هناك فائدة فى دراسة موضـوعات الأصول لغير المجتـهد: «فإنا وإن لم نصل إلى مرتبة الاجـتهاد والقدرة على الاستنباط فـإنا نصل إلى معرفة مقاصد الشـرع وسر أحكام الشريعة، وإنه لهدى تسكن إليه النفس، وإنه لنور يشرق فى نواحى القلب المؤمن ويدفع عنه الحيرة ويطرد ما يلم به من خواطر»[1].

ونحن نرجح الرأى الثانى:

ففى زمن انتـشر فيـه العلم وكثر العلمـاء، وفاضت المكتبـة الإسلاميـة بذخائر التراث، وتنافس العلمـاء فى التأليف فى شتى الموضـوعات التى تفى باحتيـاجات المسلم فى العقائد والعبـادات والمعاملات والأخلاق[2]، فمن ثم أصبحت الأحوال مهيأة لكى يكتسب المسلم المعاصر ثقـافته الإسلامية من مصادرها، ورائدة فى ذلك كله التـقوى والإخـلاص فى تحرى الحق لاسـيـما أن الإسـلام يحض على العلم والتعلم.

إن تقدير الإسلام للعلم والعلوم أمـر لا ينازع فيه أحد، فإذا (كان التـعلم حقًا لكل إنسان كما يقـول الميثاق العالمى وهو هدف مثالى عـال فإن التعلم فى الإسلام ليس مجرد حق، بل هو فريضة (**طلب العلم فريضـة على كل مسلم**) - البيهقى - أى ومسلمة.

وفى ذلك أيضًا يقول رسول الله ﷺ (ومن سلك طريقًا يلتـمس فيه علما سهل الله له طريقًا إلى الجنة) رواه مـسلم. فالتعلم فى الإسلام مـرتبط بالدين بينما هو منفصل عنه فى المناهج الغربية، وفيـما رواه البخارى قال النبى ﷺ (**من يرد الله به خيرًا يفقه فى الدين وإنما العلم بالتعلم**).

---

(١) من كتاب (فقه الأولويات فى الإسلام) د. مجدى الهلالى ص ١ ١١ والرأى الأول للأستاذ عبدالوهاب خلاف، والرأى الثانى للدكتور عبدالله دراز. دار التوزيع والنشر الإسلامية بالقاهرة ١٤١٤ هـ ١٩٩٤م.

(٢) على سـبيل المثـال ينظر كتـاب (علم نفسك الإسـلام) للدكتـور ببيل عـبدالسلام هـارون ط١ دار الوفاء بالمنصورة ١٤١٦ هـ- ١٩٩٦م.

والفقـه هو العلم بدقائق الأمـور والتعلم هو أثر العلم فى الإنســان وتكوينه لا مجرد حفظ المعارف[1].

كذلك نستند فى ترجـيح إباحة التثقيف الذاتى للمسلم المـعاصر إلى الضرورة: «فنحن الآن فى ظروف طارئة لم تمر بها الأمة الإسلامية من قبل، فلا يُكاد التاريخ يذكـر أن المسلمين ظلوا بلا خـلافـة ولا رمز يرفع راية الإســلام ويدافع عنه وعن أبنائه إلا فى هذا العصـر الذى نعيش فيه، هذه الظروف الطارئة تسـتوجب من كل منا أن يتزود - بعد تقوى الله- بالعلم الشرعى الذى يوسـع آفاقه ومداركه، ويعينه على استيعاب الظروف المحيطة به فى ظل ضوابط الشرع»[2].

المسلم فى ظل ذلك كله مخيـر بين الاكتفاء بالفروض أو تنمـية الإيمان وزيادته بالطاعات وفعل الخيرات:

فعن طلحة بن عبيد الله -رضى الله عنه - قال:

جاء رجل من أهل نجد إلى رسـول الله ﷺ ثائر الرأس، نسمع دوى صوته ولا نفقه مـا يقول حتى دنا فإذا هو يسأل عن الإسلام، فـقال رسول الله ﷺ: خمس صلوات فى اليوم والليلة.

فقال: هل علىَّ غيرها؟ قال: «لا إلا أن تطوع».

قال رسول الله ﷺ «وصيام رمضان».

قال هل على غيره؟ قال: «لا إلا أن تطوع».

قال: وذكر له رسول الله ﷺ سيم الزكاة.

قال: هل علىّ غيرها؟ قال: «لا إلا أن تطوع».

---

(١) ص ٨٥ من كتاب (الإعلان الإسلامى العالمى لحقوق الإنسان ومقارنته بالإعلان العالمى لهيئة الأمم المتحدة) للأستاذ عبدالحفيظ نصار. دار الهدى للمطبوعات - ميامى - الإسكندرية سنة ١٩٩٧م.

(٢) ص٧ من كتاب (فقه الأولويات فى الإسلام) د. مجـدى الهلالى، دار التوزيع والنشر الإسلامى بالقاهرة ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

قال: فأدبر الرجل وهو يقـول: «والله لا أزيد على هذا ولا أنقص، قال رسول الله ﷺ: «أفلح إن صدق» رواه البخارى ومسلم.

ومع النظر إلى تفاضل الأعمال وتعدد شعب الإيمان: يقول الدكتور عبدالكريم زيدان: تحت عنوان (أى الأعمال أفضل)؟

«لا شك فى تفـاضل الأعمال الصـالحة من حـيث الأجر والثـواب ومن حيث درجة طلب الشـرع لها، فالفـرض أفضل من المندوب، وما عظم نفـعه للجمـاعة أفضل مما اقتـصر نفعه على فاعله، والقـاعدة فى أفضل الأعمال الصالحـة بالنسبة لشخص ما هو العـمل المطلوب منه شرعًا فى وقت معين وظرف معـين، فالصلاة حين حلول وقتها أفضل من غيرها وأوجب على المسلم أن ينشغل بها، والجهاد فى وقـته أفـضل بالنسبـة لمن وجب عليه من الـقيـام بنوافل العبـادات وطلب العلم، والصيام فى وقـته أفضل بالنسبة لمن وجـب عليه من الانشغال بغيـره من العبادات وهكذا[1].

كذلك تتفـاوت المحرمات، فعلى رأسها السـبع الموبقات، فعن أبى هريرة رضى الله عنه - عن النبى ﷺ قال:

«اجتنبوا السبع الموبقات، قالوا: يا رسول الله وما هن؟

قال: الشـرك بالله، والسحر، وقتل النفس الـتى حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولى يوم الزحـف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات». رواه البخارى ومسلم وأبو داود والنسائى

والمسلم قبل ذلك وبعده مسئول أمام الله عز وجل:

فعن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «لا تزول قدمـا عبد يوم القيـامة حتى يسأل عـن أربع: عن عمره فيـما أفناه؟ وعن علمه مـاذا عمل به؟ وعن ماله من أين أكتسبه وفيما أنفقه؟، وعن جسمه فيما أبلاه». رواه الترمذى وقال: حديث حسن صحيح

---

(١) ص ٤١ - ٤٢ من كتاب (أصـول الدعوة) د. عبدالكريم زيـدان، مكتبة المنار الإسلامـية - بغداد ١٣٩٦ هـ/ ١٩٧٦م.

خامسًا: ثقافة المرأة المسلمة المعاصرة:

إننا لم نضع هذا البحث فى النهاية تهوينًا لشأن المرأة المسلمة ولا تقليلا من مكانتها، فإنها - كما هو معلوم طبقًا لشريعة الإسلام - على قدم المساواة فيما أوردناه فى تحمل المسئوليات والتكاليف الشرعية. ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

وقد توخينا ذلك فقط للاختصار وتفادينا التكرار، فإن كل ما عرضناه فى هذه الدراسة ينسحب على المرأة المسلمة أيضا مع تنوع مسئوليات كل منهما ولا ننسى أن (النساء شقائق الرجال).

وكيف نغفل مكانتهن وهن الأمهات والزوجات والأخوات والبنات والعمات والخالات والجدات؟

لقد قمن بأدوارهن خير قيام طوال تاريخ حضارتنا، منذ الصحابيات الجليلات ومن أتى بعدهن، حيث ربين القادة وأبطال الجهاد والعلماء والأمراء والفقهاء، ومنهن من أسهمن فى الحياة الثقافية الإسلامية، فى الفقه والأدب واللغة والتصوف والشعر، وربما لم تسجل صفات التاريخ أسماءهن كلهن، ولكنهن وقفن جميعًا وراء الستار بعيدا عن الأضواء وحب الشهرة والمجد واكتفين بالجزاء الأوفى من الله عز وجل.

وقد وردت آية جامعة فى سورة الأحزاب، اقترن فيها المسلمون والمسلمات فى جميع أحوالهم وأعمالهم قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب : ٢٥].

وقد أورد النيسابورى فى تفسيره لهذه الآية، أنه «يروى أن أم سلمة أو كل

أزواج النبى ﷺ قلن يا رسول الله: ذكر الله الرجال فى القرآن ولم يذكر النساء فنحن نخاف أن لا يقبل منا طاعة فنزلت: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾ وذكر لهن عشر مراتب:

الأولى: التسليم والانقياد لأمر الله، والثانية: الإيمان بكل ما يحب أن يصدق به، فإن المكلف يقول أولا كل ما يقول الشارع فأنا أقبله فهذه الإسلام، فإذا قال له شيئًا وقبله صدق مقالته وصحح اعتقاده، ثم إن اعتقاده يدعوه إلى الفعل الحسن والعمل الصالح فيقنت ويعبد هو المرتبة الثالثة، ثم إذا آمن وعمل صالحًا كعمل غيره يأمر بالمعروف وينصح أخاه فيصدق فى كلامه عند النصيحة، وهو المراد بقول ﴿وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ﴾ .

ثم إن الآمر بالمعروف والناهى عن المنكر يصيبه أذى فيصبر عليه كما قال فى قصة لقمان ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ﴾ أى بسببه، ثم إنه إذا كمل فى نفسه وكمل غيره قد يفتخرو بنفسه ويعجب بعبادته فمنعه منه بقوله ﴿وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ﴾ وفيه إشارة إلى الصلاة، لأن الخشوع من لوازمها ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ فلذلك أردفها بالصدقة، ثم الصيام المانع من شهوة البطن.. ثم ختم الأوصاف بقوله ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ يعنى أنهم فى جميع الأحوال يذكرون الله..»[1].

أما عن اللغط الدائر حول مكانة المرأة فى الإسلام فإننا نأتى بخلاصة دراسة المستشرقة الألمانية زيجفرد هونكة، وقد عاشت فى أوروبا وقرأت العهدين القديم والجديد، واستطاعت عن علم أن تعرف مكانة المرأة فى الإسلام المعرفة الصحيحة، بعيدًا عن مؤثرات الآراء الخاطئة التى تحملتها أوروبا نحو الإسلام بعامة والمرأة المسلمة بخاصة.

وبقراءتها لترجمة معانى القرآن الكريم وفهمها أحكامه، أخذت تصحح مفاهيم

---

(١) (غرائب القرآن ورغائب الفرقان) للنيسابورى تحقيق وتعليق د. حمزة النشرتى والشيخ عبدالحفيظ فرغلى ود عبد الحميد مصطفى، توزيع (الأهرام) بالقاهرة ١٩٩٣م.

مواطنيهـا فإن «القرآن الكريم بصفـته الدستور الإلهى الذى ينص على التـشريعات والحدود المنظمة لكافة المجالات الدينية والدنيوية؛ الشخصية والعامة، إنما يؤكد أنه لا فرق بين الذكر والأنثـى لا فى الجوهر ولا فى التكريم، ويساوى بينهمـا مساواة تامة فى كافة العبادات وأمور العقيدة، وفى الناحـية الخلقية البحتة، كما فى الأمور المالية المادية والاجتماعية»[1].

وبعد عرضـها لبعض نصوص العـهد القديم التى تصـور آدم وحواء فى صراع أزلى، وتتحول الصورة فى أسفار العهد الجديد إلى كراهية، تجد الإسلام لا يصف المرأة بأنها أصل الخطيئـة ولا يعرف الصراع بين الجنسين لا فى الحيـاة الزوجية ولا فى الحيـاة العامة، بل يذكـر القرآن ما جـعله الله عز وجل من مودة ورحـمة بين الأزواج: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١].

كذلك فإن الرسول ﷺ أوصـى بالنساء خيرًا كما أنه أوصى بالأمـهات أكثر من وصيته بالآباء، وحرم القرآن وأد البنات وساوى بينهن وبين الذكور فى التربية.

ضرورة الجهاد العلمى المتواصل:

لم تعرف أمة الإسلام طبقة المثقفين النخبة أو الصفوة بالمفهوم الغربى المعاصر - أى التى تكتفى بالتـزود بالمعارف وتمضى فى تثقيف ذاتها إلى الـدرجات العليا التى تؤهلها إلى قيادة مـجتمعاتها بقدر نبوغـها فى مجالات الفكر المحض والنظريات، أى مـحصـورة فى دائرة الفلك النظرى فـحسب، وربما كـانت سلوكيـات أغلبهـا مخالفة تماما لما تدعو إليه من فضائل وآداب ومثل عليا!

لم تعرف أمة الإسلام هذا الصنف من الناس، ولكن عرفت الطبقات العليا من العلماء المجتهدين من أهل العقد والحل، المتخصصين فى التفسير والحديث والفقه،

---

(١) كتاب (اللـه ليس كذلك) زيجفرد هونكة ص ٦١ ترجـمة د. غريب محـمد غريب دار الشروق مـؤسسة بافاريا ومجلة النور الكويتية.

الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، فضلا عن قيامهم بالتعليم والوعظ والتربية، وكافتهم يحرصون فى المقام الأول على الاستناد إلى كتاب الله وسنة رسول ﷺ مع الحرص على العبادات والالتزام بالسلوك الإسلامى القويم(١).

فإن على المسلم المعاصر واجب الجهاد العلمى المتواصل، لتسلم له ثقافته ويحتفظ بأصالة شخصيته لكى لا تذوب بفعل أجهزة الإعلام الجبارة المسلحة على فكرة (العولمة) هادفة إلى صهر ثقافات غير الغربية فى أتونها.

وتتميز الثقافة الإسلامية، فضلا عن العقائد الإيمانية وفى أعلاها عقيدة التوحيد الخالصة من أية شائبة من الشرك، تتميز بالجانب التعبدى والعنصر السلوكى المتمثل فى العبادات، ولها دورها فى تنبيه الإنسان المسلم إلى حقيقة وجوده، وتعريفه بمغزى حياته، وحثه على تحسين سلوكه دائمًا إلى الأفضل، فيظل طوال حياته حريصًا على صلته بالله عز وجل:

قال تعالى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: ٢٢]، أى متذللا بالعبودية، مقرًا بالألوهية ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ مطيع لله فى أمره ونهيه، ﴿بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ بالطرف الأوثق، الذى لا يخاف انقطاعه من ويمسك به، ﴿عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ مرجع كل أمر، خير وشر، وهو المجازى عنه(٢).

وقد اجتهد العلماء والباحثون فى محاولة معروفة مغزى الأمور التعبدية، ومن أقربها توفيقًا ما ذهب إليه الأستاذ رءوف أبو سعدة، فكتب: «الصلاة تريك نفسك فى صورة العبد خمس مرات فى اليوم والليلة، فتذكرك بمن أنت، والزكاة تدلك على أنك عامل فى أرض الله بأمر الله، تؤدى خراجها فى سبيله عز وجل وفق ما أمرك، والصوم يذكرك بأنك طاعم من رزق الله، إن شاء أطعمك وإن شاء حرمك، والحج لمن استطاع إليه سبيلا يذكرك بالمنتهى، فى يوم مجموع له الناس،

(١) ينظر كتابنا «مع المسلمين الأوائل فى نظرتهم للحياة والقيم» ط. دار الدعوة بالإسكندرية.
(٢) مختصر تفسير الإمام الطبرى - دار الشروق.

وقد تقطع بهم الأسباب - إلا مـن وجهته عز وجل - كلهم ضارع إليه، يسـتغفره ويسأله ويستعينه»[1].

وفى هذا الغرض اخـترنا رسالة الإمام ابن حـزم، لأنها تحتوى على مـجمل ما يجب على كل مسلم ومسلمة معرفته وأداءه.

وسنلخص هذه الرسالة التى وجـهها الإمـام ابن حزم لبعض إخوانه وأصـدقائه الذين كتبوا إليه مسترشدين فكتب إليهم محددا المسائل التى لا يستغنى عنها من له أقل اهتـمام بدينه فكتب: «سـألتم - وفقنا الله وإياكم - عـن أقرب ما يعـتب به العبد المجـرم ربه يوم القيامة، وعن أفـضل ما يستنزل به عفـوه وفضله عز وجل، ويستدفع به سخطه وغضبه، وعن أنفع ما يشتغل به عن كثرة ذنوبه، وعن خير ما يسعى به المرء فى تكفير صغائره وكـبائره»، ثم أجاب ذكرا قول الله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَـارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَـسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّـيِّـئَـاتِ﴾ [هود: ١١٤] وحديث الرسول ﷺ [الصلوات الخمس، والجـمعـة للجمعـة، كفارة لما بيـنهن ما لم تغشن بالكبائر]، فكان هذا الحديث موافقًا لقول الله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١].

وقال ابن حزم «فـصح أن بأداء الفرائض واجتناب الكبـائر - أعاذنا الله وإياكم منها - تحُطُّ السيـئات التى هى دون الكبائر فبـقى أمر الكبائر، فوجب النظر فـيها، فوجدنا الناس قد اختلفوا فيها، فـقالت طائفة: هى سبع، واحتجوا بحديث النبى ﷺ: [اجتنبوا السبع الموبقات]، فذكر عليه السلام الشرك، والسحر، وقتل النفس، وأكل مال اليـتيم، وأكل الربا، والتـولى يوم الزحف، وقذف المحـصنات المؤمنات الغافلات».

وروى عن ابن عبـاس أنه قال: (هى السبعـين أقرب منها إلى السـبع) ثم ذكر الإمام ابن حزم بعـد ذلك، فمنها قول الزور، وشهـادة الزور، وعقوق الوالدين، والكذب عليـه ﷺ، وتعريض المرء أبويه للسب بأن يسب آباء الـناس، وذكر ﷺ

(١) ص ١٦٩ جـ١ من كتاب (من إعجاز القرآن - رءوف أبو سعدة/ دار الهلال سنة ١٩٩٣م.

الوعيد الشديد بالنار على الكفر، وعلى كفر نعمة المحسن بالحق، وعلى النياحة فى المآتم، وحلق الشعر فيها، وخرق الجيوب والنميمة، وترك التحفظ من البول، وقطيعة الرحم، وعلى الخمر، وعلى تعذيب الحيوان بغير الذكاة لأكل ما يحل أكله، وما أبيع أكله منها، وعلى إسبال الإزار، وعلى مانع فضل مائه من الشراب، وعلى الغلول، وعلى مبايعة الأئمة للدنيا.. وعلى المقتطع بيمينه حق امرئ مسلم، وعلى الإمام الغاش لرعيته، وعلى من ادعى إلى غير أبيه.. وعلى من غل، وعلى من ادعى ما ليس له، وعلى لاعن مالا يستحق اللعن، وعلى بغض الأنصار، وعلى تارك الصلاة، وعلى تارك الزكاة، وعلى بغض على».

ويقول ابن حزم: وقد أطلت التفتيش على هذا منذ سنين، فصح لى أن كل ما يوعد الله به فى النار - أى فى القرآن - فهو من الكبائر» ثم يقدم أحاديث الرسول ﷺ كهدايا إلى أصحابه، وهى الدالة على الأذكار الشرعية وقراءة القرآن والاستغفار «فيستحب للمسلم الذى يطلب النجاة أن يأتى بما لعله أن يوارى ذنوبه ويوازن، وأن يواظب على قراءة القرآن فيختمه فى كل شهر مرة، فإن ختمه فى أقل فحسن، ما بين ما ذكرناه إلى أن يختمه فى ثلاث لا أقل، ولا يسع أحد أن يختمه فى أقل من ذلك، ويواظب مع ذلك على قراءة قل هو الله أحد ولو فى كل ركعة من صلاته مع أم القرآن وسورة أخرى».

ويمضى ابن حزم فى تقديم هداياه «وليواظب على صلاة الفرض فى الجماعة» وبخاصة صلاة الفجر والعشاء.

ثم أخذ يرتب الناس على مراتب الحقائق فى دار القرار فى الآخرة - وأما الدنيا فمحل مبيت بؤسها منقض وسرورها منسى كأن ذلك لم يكن فوجدتها عشر مراتب:

فأولها: مرتبة عالم يعلم دينهم فإن كل من عمل بتعليمه أو علم شيئًا مما كان هو السبب فى علمه، فذلك العالم والمتعلم شريك فى الأجر إلى يوم القيامة على آباد الدهور.

والثانية: حكم عدل فإنه شريك لرعيته فى كل عمل خير عملوه فى ظل عدله وأمن سلطانه بالحق لا العدوان..

وأما الثالثة: مـجاهد فى سبيل الله عز وجل، فإنه شـريك لكل من يحميه فى كل عمل خير يعمله..

وبعد هذه مرتبـة رابعة: هى مرتبة الحظوة والقربة وهى حالة إنسـان مسلم فتح الله له بابًا من أبواب البـر مضافًـا إلى أداء فرائضه إمـا فى كثـرة صيام، أو كـثرة صدقة، أو كثرة صلاة، أو كثرة حج وعمرة وما أشبه ذلك..

ثم مرتبـة خامـسة: وهى مرتبـة الفوز والنجـاة وهى حالة إنسـان مسلم يؤدى الفرائض ويجتنب الكبائر ويقتصر على ذلك..

ثم بعدها مرتبتان: وهمـا مرتبتا السلامة مع الغزر وعاقبتـهما محمودة، إلا أن ابتداءها مـذموم مخـوف هائل، وهما حال إنسـان مسلم عمل خـيراً كثيـراً وشراً كثيراً، وأدى الفرائض وارتكب الكبائر، ثم رزقه الله التوبة قبل موته.

والثانية حال امرئ مسلم عمل حسنات وكبائر ومات مصراً، إلا أن حسناته أكثر من سيئاته، وهذان غزرا ولكنهما فائزان ناجيان بضمان الله عز وجل لهما إذ يقول ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢] ولقوله ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ۝٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [القارعة: ٦، ٧] وقوله: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ١١٤] ولا خلاف بين أحد من أهل السنة فـيما مكنا من هذا» ص١٥٤.

ثم مرتبـة ثامنة: وهى مرتبـة أهل الأعراف، وهى مـرتبة خـوف شديد وهول عظيم، إلا أن العـاقـبة إلى سـلامـة، وهى حـال امرئ مـسلم تسـاوت حـسناته وكبائره...

ثم مرتبة تاسعة: وهـى مرتبة نَشبة ومحنة و بلية وورطة ومصـيبة وداهية، نعوذ بالله منها، وإن كانت العاقبة إلى عفـو وإقالة وخير، وهى حال امرئ مسلم خفت موازينه ورجحت كـبائره على حسناته... وبعد وصف ابن حـزم لمن على شاكلته فى الأحاديث الصـحاح، يسـتطرد فيقـول: «فيـبقى هؤلاء فى النار على قـدر ما أسلفوا، حتى إذا بقوا كما جاء فى الحديث الصحيح «جاءت الشفاعة التى أدخرها

لله لنبيه ﷺ وجاءت الرحمة التى ادخرها لذلك اليوم الفظيع والموقف الشنيع وأخرجوا كلهم من النار فوجًا بعد فوج بعد ما امتحشوا أو صاروا حممًا.. أى أنهم لا يُخلدون فى النار...

وأما المرتبة العاشرة، فهى مرتبة السُحق، والبُعد، والهلكة الأبدية، وهى مرتبة من مات كافرًا، فهو مخلد فى نار جهنم لا يخفف عنهم من عذابها، ولا يُقضى عليهم فيموتوا.

وبعد أن ينصح الإمام ابن حزم بالإكثار من النوافل، يرى أنه ما يلزم كل إنسان من حفظ القرآن، فهو أم القرآن وشىء من القرآن معها، مذكرًا بفضل تعلم القرآن كما جاء فى حديث الرسول ﷺ: [خيركم مَن تَعلَّم القرآن وعلَّمه].

ويحض إخوانه على طلب العلوم بأنواعها مع إخلاص النية، فقد صح عن النبى ﷺ أنه قال [من تعلم علمًا مما يبتغى به وجه الله لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضًا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة].. فالله الله عباد الله، تداركوا أنفسكم بتصفية نياتكم فى هذا الباب وفى العمل المرغوب فى الصلاة والصيام والصدقة، مع تحذيره الشديد من النفاق «واعلموا رحمكم الله أن من تعمّد اللهو واللعب حتى مضى وقت صلاة مفروضة ولم يصلِّها، أخف ذنبًا عند الله ممن صلاها لأجل الناس ولولاهم ما صلاها.....».

وفى إجابته عن سؤال: أى الأمور أفضل فى النوافل: الصلاة أم الصيام أم الصدقة؟

يجيب الإمام ابن حزم «جاءت الرغائب فى كل ذلك، وكلها فعل حسن، وما أحب للمؤمن أن يخلو من أن يضرب فى هذه الثلاث بنصيب ولو بما قلَّ».

ويستطرد فى موضوع آخر «وأما ما سألتم عنه مما روى فى حديث التنزُّل، وهل الإجابة مضمونة فى تلك الساعة (يقصد صلاة الليل)، فحديث صحيح، وقد قال الله تعالى فى محكم كتابه ﴿ادْعُونى أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠]، فإنما شرط الإجابة

العمل الصالح، أو أن يكون الداعى مظلومًا، على ما جاء فى الأثر عن النبى ﷺ:

إن دعاء المؤمن لا يخلو من إحدى ثلاث: إما تعجيل إجابة، وإما كفاية بلاء، وإما تعويض أجر، أو كلامًا هذا معناه. فاعلموا وفقنا الله وإياكم أن مَن دفع الله تعالى عنه بلاءً، أو عوّضه أجرًا فقد أجاب دعاءه ولم يُخيّبه، وللإجابة فى اللغة معنى غير الإسعاف...

وأما عن تفاضل الكبائر، فإن الحسنات تتفاضل والكبائر تتفاضل، سُئل ﷺ عن أكبر الكبائر، فذكر عليه الصلاة والسلام أشياء منها: زنا الزانى بامرأة جاره، ومنها زنا الشيخ ومنها زنا الزانى بامرأة المجاهد.

ثم ختم الرسالة ببيان التوبة وأنواعها، وفى النهاية فإن التوبة إنما هى التبرؤ من الذنب والخروج عنه بما أمكن .[1]

* * *

تم الكتاب بحمد الله تعالى، وصلى اللهم على
نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

(١) باختصار من (رسالة التلخيص لوجود التخليص) للإمام ابن حزم من الصفحات ١٤١-١٤٣-١٤٥-١٤٦-١٥٠-١٥١-١٥٢-١٥٤-١٥٥-١٥٧-١٦٠-١٦٨-١٧٠- ١٧٣-١٨٥، وهى منشورة ضمن رسائل أخرى بعنوان (الرد علي ابن النغريلة اليهودى) تحقيق د. إحسان عباس ط دار العروبة بالقاهرة ١٣٨ هـ - ١٩٦٠م